

المكتبة الثقافية

١٤

ouldbostami

الصحافة المصرية في مائة عام

الدكتور عبد اللطيف احمد صبرة

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
الإقليم البحري
إدارة العامة للثقافة

الناشر



دار الفياض

المقدمة

طليت
إلى الإدارة العامة للثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد
القومى أن أضع لها كتاباً عن الصحافة المصرية. فبادرت
بإجابة هذا الطلب ، وقصرته على مائة عام حرصاً منى على أن أقدم
للقرأ خلاصة طيبة لقصة الكفاح الذى كتب على صحافتنا منذ
نشأتها إلى أن بلغت حداً لا بأس به من النضج والكمال ، وأصبحت
قدوة حسنة لما ينبغى أن تكون عليه صحافة الشعوب التى تستكمل
حريتها واستقلالها ، ومثلاً يحتذى للصحافة التى تشارك بكل قوتها
فى بناء الأمم والأوطان .

ولقد بدا لى أن أقسم هذه السنوات المائة إلى أربع فترات
سميت كل واحدة منها طورا ، وتحدثت عن كل طور منها على
حدة . على أن هذا التقسيم الذى لجأت إليه لا يعدو فى الحقيقة
أن يكون طريقاً من الطرق التى يصطنعها الباحثون عادة لتيسير
الموضوع على القراء ، وإلا فإن حياة الصحافة المصرية سلسلة
متصلة الحلقات ، حلقة الطفولة فيها تتداخل فى حلقة الشباب .
وهذه الحلقة الأخيرة تتداخل فى بقية الحلقات ، بحيث يصعب

الفصل بينهما فصلا صحيحا بالأيام والسنوات .
(وبعد) فأنا أشكر إدارة الثقافة إذ أتاحت لى هذه الفرصة
الجميلة، لى أتحدث إلى القراء فى إيجاز عن تاريخ الصحافة المصرية،
التي كتبت باللغة العربية، وأنا أعذر إليهم؛ وإلى أصحاب الصحف
القديمة والحديثة، حيث لم أستطع أن أشير إلا إلى النزر اليسير من
الجرائد المكتوبة بالعربية . أما الجرائد التي ظهرت فى مصر
باللغات الأوروبية . فقد حال بينى وبين الإشارة إليها ضيق
المساحة التي أرادت إدارة لهذا الكتاب . والله ولى التوفيق .

عبد اللطيف صحرى



الطور الأول
أو
"طور النشأة"

(من سنة ١٨٢٨ — إلى سنة ١٨٧٦)

الصحافة والطبعة

لم يكن للحضارة الحديثة من نعمة أجل من نعمة المطبعة، ولم يكن للطبعة بعد ذلك من حسنة أفضل من الصحف والكتب .

ولقد قيل : إن الطباعة بالحروف العربية إنما دخلت مدينته القسطنطينية قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر بنحو خمس وسبعين سنة ، أى أن الآستانه أسبق بلاد الشرق اتصالاً بالمطبعة ، عرفتها على أيدي اليهود القاطنين بها ، وذلك في غضون القرن الخامس عشر للميلاد .

ولقى لإنشاء الطباعة بالحروف العربية مقاومة شديدة من رجال الدين في مدينة القسطنطينية . فقد أفتى هؤلاء بأنها رجس من عمل الشيطان . ثم توسط بعض العلماء بعد ذلك لدى السلطان فأذن بإنشاء المطبعة العربية ، وقامت بطبع الكتب الدينية واللغوية .

وفي غير القسطنطينية من البلاد الإسلامية ، كانت توجد مطبعة في مدينة (حلب) يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٠٢ ميلادية .

ومعنى ذلك باختصار : أن مصر كانت آخر بلاد الشرق معرفة بالمطبعة ، لم تعرفها إلا على يد الحملة الفرنسية . غير أن مطبعة الحملة خرجت من مصر بخروج الجند الفرنسيين منها .

على أنه وإن كانت مصر آخر بلاد الشرق اتصالا بالمطبعة ، إلا أنها كانت بفضل الحملة الفرنسية أول بلاد الشرق معرفه بالصحافة ، التى هى ثمرة من ثمرات المطبعة . غير أن الصحافة المصرية شئ ، والصحافة الفرنسية التى صدرت فى مصر شئ آخر . فلا يصح النظر إلى هذه الأخيرة على أنها مصرية صميمية ، وإن كان المؤرخ مضطرا إلى النظر إلى تلك الصحف التى أصدرتها الحملة على أنها نقطة البدء فى تاريخ الصحافة المصرية .

يقول الجبرقى فى تاريخه عن صحف الحملة الفرنسية :

« إن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم ، وأما كن أحكامهم . ثم يجمعون المتفرق فى ملخص يرفع فى سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخا عديدة يوزعونها فى جميع الجيش » .



الصحافة الرسمية

الصحافة المصرية في حجب الحكام، وعاشت على ولدت أموالهم ونمت وترعرعت بسلطانهم ، وخضعت لتوجيهاتهم ، ولم يكن لها بد من هذا الخضوع .
وتفسير هذه الظاهرة التاريخية بإيجاز : أنه منذ استقر الأمر لمحمد علي في مصر : شرع يفكر في تنظيمها ، وكان أمامه مثل واضح لهذا التنظيم هو المثل الذي جرى عليه الحكم في أيام الحملة الفرنسية على مصر .

وكان من أخطر الأجهزة التي تألف منها نظام هذا الحكم جهازان كبيران :

أحدهما - خاص بدواوين الحكومة : وهي ما نعتبر عنه اليوم باسم الوزارات .

ثانيهما - خاص بالصحافة : وهي يومئذ عبارة عن النشرات والدوريات .

وكما كان للفرنسيين كبير اعتناء بضبط الحوادث اليومية في دواوينهم ، وأماكن أحكامهم على حد تعبير الجبرتي - فكذلك بدا للوأي الجديد أن تكون له مثل هذه العناية بهذه الأمور .

ولا يكون ذلك - كما دلت عليه تجربة الجنرال بونابرت - إلا عن طريق الصحف .

ومن ثم نشأت في مصر طائفة من الصحف الرسمية سئذكرها إجمالاً على النحو الآتي :

جورنال الخديو :

فرغ محمد علي من تنظيم الحكومة وإنشاء الدواوين في سنة ١٨١٣ . فاحتاجت الشئون المالية والزراعية والتعليمية والعمرانية إلى أن يكتب لها ملخص ، أو تقرير يقدم إلى الوالي باسم « جورنال » .

وكان الوالي ينتظره مرة في الشهر على الأقل ، ثم رأى أن هذه المدة أطول مما ينبغي ، فطالب أن يقدم إليه هذا التقرير كل أسبوع ، ثم أصدر أمره إلى المسؤولين أن يكونوا مستعدين لتقديمه في أي وقت يريده الباشا .

وأما الجهة التي يصدر عنها الجورنال فكانت تعرف باسم « ديوان الجورنال » . وأما المطبعة التي تطبع فيها هذه الصحيفة فهي « مطبعة القلعة » . وهي واحدة من مطابع تسع استطاع محمد علي أن ينشئها في مصر .

وأما ناظر التقارير - أو بعبارة أخرى رئيس التحرير - فهو رجل بدعي ، محمود افندى ، - كان من عمله أن يتلقى تقارير الأقاليم في كل أسبوع ، ثم يقوم بترتيبها وتنسيقها تمهيدا لعرضها على الباشا قبيل الطبع .

وأما عدد النسخ التي كانت تطبع من « الجورنال » ، فلم تكن تتجاوز المائة . وكانت تصدر باللغتين الزكية والعربية ، ويشتمل على الأخبار الحكومية ، وبعض قصص من ألف ليلة وليلة بقصد تشويق القراء .

والخلاصة : أن هذه الصحيفة الرسمية التي هي أقدم الصحف المصرية على الإطلاق كانت خاصة بالباشا . أو الوالى . وكان يسمح بأن يطلع عليها نفر قليل من كبار موظفى الحكومة . أما الشعب نفسه فلم يكن له بهذه الصحيفة صلة ما واستمر الحال على ذلك حتى ظهرت الجريدة الرسمية الثانية ، فى تاريخ الصحافة المصرية وهى :

الوقائع المصرية :

أدرك الوالى أن من الخير أن يكون الشعب المصرى على صلة بأعمال الحكومة ، ولأسبيل إلى ذلك بطبيعة الحال إلا بنشر

الجريدة الرسمية بين أكبر عدد يمكن من أفراد هذا الشعب المصرى .
وإذا ذاك استقر رأى على توسيع نطاق الجريدة المعروفة
(بجورنال الخديو) وإصدارها باسم جديد هي (الوقائع المصرية)
فصدرت هذه الجريدة فى الثالث من ديسمبر عام ١٨٢٨ (١٥
رجب عام ١٢٤٤) . وكتب الوالى د إلى المديرين ورؤساء
الدراوين بعمل خلاصة خصوصية ، عن الوقائع التى تحصل
بالجهات ، وإرسالها إلى قلم الوقائع لطبعها وتوزيعها على الذوات
الملكية والجهادية وتحصيل ما تقرر على ذلك من رسوم .
ومن ثم صدرت الأوامر العالية ، بتوزيع الوقائع المصرية
على أمراء البيت المالك وكبار الموظفين ، وعدد كبير من العلماء
ورجال الدين ثم فكر الوالى بعد ذلك فى أنه لا مانع من توزيعها
على طلبة العلم فى مصر وأوربا بالبحر ، لأن قراءة الوقائع بالنسبة
إلى هؤلاء جزء من برنامج إعدادهم ؛ ليكونوا موظفين صالحين
فى مستقبل الأيام .

ثم صدرت الأوامر بعد ذلك أن توزع (الوقائع) على
جميع موظفى الحكومة بلا استثناء ؛ بشرط أن يدفعوا الاشتراك
ما داموا يتقاضون ألف قرش أو أكثر فى الشهر .
وكان محمد على يشعر فى قرارة نفسه بأنه رئيس تحرير فعلى

لهذه الصحيفة ، والمستول الأول عن كل ما ينشر فيها . وكان يوحى إلى كتابها ومحرريها بأن يخصصوا بها مكانا ممتازا لمدحه والثناء عليه لقاء سعيه في إنهاض البلاد من جميع النواحي . وكانت الوقائع لا تفى في الإشارة بأعماله ووصفه بالعدل في الأحكام ، وكانت مقدمة الصحيفة (أو مقالها الافتتاحي) هى التى تتضمن كل ذلك . واعتاد الباشا أن يراجع مسودات الصحيفة قبل ذهابها إلى المطبعة ، وكان يدقق في كل خبر من أخبارها ، وباختصار قامت فكرة الوقائع على الدعاية الواسعة لمحمد على وجهوده في سبيل الإصلاح والنهوض بالبلاد .

ولا شك أن الوقائع المصرية كانت تتألف من موضوعات أخرى فيما عدا الدعاية للوالى . ومن هذه الموضوعات — على سبيل المثال — البحوث العلمية التى احتاجت إليها مصر في نهضتها الحديثة كالبحوث التى تتصل بالمال ، أو الزراعة ، أو الصناعة ، أو التعليم .

وفوق هذا وذاك وجدنا الوقائع تعنى بحسن توجيه الحكام ، وتصاهمهم بسياسة الوالى فى كل مرفق من المرافق العامة . ولم تنس الوقائع بالإضافة إلى كل ما تقدم أن تحرص دائماً على إذاعة

أنباء الجيش . وترقيات الضباط ، والإشادة بانتصاراتهم .
ونحن نعرف الدور الذى لعبه الجيش المصرى يومئذ فى الحياة
المصرية ، وفى تمكين مصر — كما يقول المؤرخون الأوربيون —
من أن تظهر بمظهر الأمة القوية النفوذ ، الواسعة السلطان .
ولا غرابة فى ذلك . فهذا الجيش هو الذى قضى على المماليك ،
وقتح بلاد العرب ، وهزم الوهابيين ، وفتح السودان وكريت
واليونان والشام ، وطرد الإنجليز من مصر سنة ١٨١٧ ،
ومكن الوالى من أن يكون سياسة خارجية خاصة بإزاء الباب
العالى من جهة والدول الأوربية من جهة أخرى .

أما أسرة التحرير فى هذه الجريدة الرسمية القديمة فمن أولها
رجل يقال له (سامى بك) كان لا يجيد غير اللغة التركية .
ثم رجل يقال له (الخواجانصر الله) كان رئيس المترجمين فى
الصحيفة . ثم رجال من الأزهر أحدهم الشيخ عبد الرحمن الصفى
كان عمله التحرير باللغة العربية .

وبقيت الوقائع على هذا النحو حتى قبض الله لها من جازوا
بها دور الطفولة إلى أول مرحلة من مراحل الشباب وكان ذلك
على يد شيخ الصحافة المصرية «غير منازع» رفاعه الطمطاوى .

وذلك أنه في أواخر سنة ١٨٤١ اجتمع مدير ديوان المدارس
ومدير الإيرادات وآخرون وفكروا في سياسة جديدة للوقائع ،
ووقع اختيارهم على رفاعة الطهطاوى لتنفيذ هذه السياسة .
وكان من الخطوط العامة لها ما يلى :

أولا — إضافة مادة جديدة إلى مواد الصحيفة — وهى
مادة الأخبار الخارجية .

ثانياً — زيادة مادة أخرى كذلك وهى نشر القطع الأدبية
التي يختارها المحرر من أمهات الكتب العربية الأدبية .
ثالثاً — العناية فى باب الأخبار الداخلية بما يأتى :

- أ — أخبار الرتب والترقيات .
- ب — أخبار القضايا والأحكام .
- ج — أخبار المساجد والمؤسسات الخيرية .
- د — بيان بمساحة الأراضى التى تزرع حبوباً .
- هـ — بيان (بالابعاديات) التى ينعم بها الوالى على بعض
الموظفين المجتهدين بالحكومة .
- و — أسعار الغلال واللحوم ونحو ذلك .
- ز — بيان بعدد العمال الذين يعملون فى الجسور والقناطر
وما إليها .

ح — إشارة إلى الحوادث الغربية أو غير المألوفة .

وأما جهة الإصدار فهي (قلم الوقائع) . وأما مواعيد هذا الإصدار فلم يكن لها حظ ما من النظام ، فحينما تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ، وحينما تصدر مرة واحدة في كل أسبوع ، وأحيانا يمر أسبوع واثنان دون أن يصدر عدد جديد . وأكثر من هذا وذلك ، أنه حدث أن انقطعت (الوقائع) عن الظهور خمسة أعوام كاملة .

وكانت لافتة الصحيفة في أول عهدها بالظهور عبارة عن « زهرية » كتب تحتها اسم الصحيفة هكذا « وقائع مصرية » . ثم تخلصت الصحيفة من شكل الزهرية وجمعت مكانها شكل هرم كتب في داخله عنوان الصحيفة على النحو المتقدم ، وأطلت من وراء الهرم نخلة ، وظهر في الجانب الأيسر من هذا الهرم قرص الشمس .

وأما الصفحة الأولى فقد قسمت إلى عمودين كتب أحدهما باللغة التركية جهة اليمين والآخر بالعربية جهة الشمال . ثم حدث في بعض الأعداد أن كانت بعض المواد تكتب باللغة العربية وحدها ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر التعصب لهذه اللغة على كل حال ، وكان في

الوقت نفسه تمهيدا لتفرد اللغة العربية بتحرير الوقائع . وقد ساعد تفرد العربية بالتحرير في هذه الصحيفة على زيادة المادة التي تقدمها للقراء ؛ فتوسعت الصحيفة إذ ذاك في الأخبار الداخلية والأخبار الخارجية وبعض المواد الأدبية التي تفيد القراء .

والمهم بعد هذا وذاك أن يقال : إن صحيفة الوقائع المصرية عاصرت الصحافة المصرية في الأطوار الأربعة التي ستحدث عنها ، وأن ما قدمناه من حديث صحيفة الوقائع إلى الآن إنما يصف هذه الصحيفة في أول طور من أطوار الصحافة . والآن قلنتقل إلى الصحيفة التالية وهي :

الجريدة العسكرية :

كانت الوقائع المصرية تعنى بأخبار الجيش وانتصاراته وحركاته ، ولكن هذه العناية لم تقنع الجيش المصرى في ذلك الوقت ، ففكر في أن تكون له جريدة خاصة به أطلق عليها اسم (الجريدة العسكرية) . وكانت الجريدة العسكرية تطبع بمطبعة « الجهادية » وبدأت في الصدور منذ عام ١٨٣٣ ميلادية ، وتدأنا الوثائق على أنها كانت تختص بنشر الجرائم التي تقع في الأليات ،

ونشر الأحكام التي توقع على أصحاب هذه الجرائم بالذات ، وانها كانت تصدر خمس عشرة مرة في كل شهر ، ومع هذا وذاك فإن هذه الجريدة لم تعيش طويلا لعدم الحاجة إليها .



ومضى عهد محمد علي ، وتلاه عهد عباس الأول فسعيد . وفي عهدهما أصاب الحياة المصرية شيء كثير من الركود ، فأغلق ديوان المدارس ، وأغلقت المصانع والمعامل ، وفسد الجيش نفسه بدخول الجند الأرناؤوط ، وبإيثار الوالي هذه الفئة الباغية التي حاول محمد علي من قبل أن يتخلص منها . ومن ثم كان من الطبيعي أن تتوقف الوقائع المصرية عن الصدور وأن يقف دولا ب العمل جملة في المطبعة الأميرية .

وبقي الحال على ذلك حتى جاء إسماعيل فأصدر الأوامر الصريحة : « بأن تكون المكاتبات التي تتداول من الآن فصاعداً بكافة الدواوين والمصالح الأميرية مكتوبة باللغة العربية » . ويبدو أن الذي دفعه إليها هو كرهه الشديد للباب العالي والخلاف الذي نشب بينهما إذ ذاك .

وأما من حيث الجيش فتمد أمر إسماعيل بإنشاء المدارس

التي تعلم الفنون الحربية . وعنى كذلك بالبعثات الحربية التي أرسلها إلى فرنسا وغيرها من البلاد الأجنبية ، وبعث في طلب الضباط الكبار من أمريكا ؛ لتدريب الجيش المصري على النظم الحديثة ، وعنى بأن يكون للجيش مطبعة ، وصحف ومكتبة .

وكما احتاج جده محمد على إلى كل من الوقائع المصرية والجريدة العسكرية ، فكذلك شعر إسماعيل بالحاجة الماسة إلى شيء من ذلك . فظهر في عهده عدد لا بأس به من الصحف الرسمية . ومن أهم هذه الصحف على سبيل المثال : (صحيفة روضة المدارس) ، و (مجلة يعسوب الطب) ، و (جريدة أركان حرب الجيش المصري) .

وقد دأبت هذه الصحيفة الأخيرة على أن تقصر عنايتها على العلوم والفنون الحربية ، كما كانت مجلة (يعسوب الطب) تقصر عنايتها على العلوم الطبية ، وكانت كلتا الصحيفتين تنشران باللغة العربية لا التركية ، وكان يشرف على تحرير الصحيفة العسكرية منهما أحد أساتذة الأزهر المعروفين ، وهو الشيخ حسن الطويل ، وكان مدرسا للغة العربية بمدرسة دار العلوم . وللأهمية الثقافية للمجلة (روضة المدارس) الرسمية أردت أن أخصها بكلمة موجزة .

مجلة روضة المدارس :

أنشأ محمد علي ماسماه د ديوان المدارس ، وألحق بهذا الديوان قلماً للترجمة . وأهمل هذا القلم في عهد عباس وسعيد . فلما كان عهد إسماعيل اتجه إلى إحيائه من جديد وعهد به إلى رفاعة الطهطاوي ، وهو الرجل الذي وكل إليه الباشا أموراً كثيرة تتصل بالصحافة . منها أمر الإشراف على تحرير مجلة جديدة تدعى (روضة المدارس) .

وصدر العدد الأول من هذه المجلة يوم السبت السابع عشر من شهر أبريل سنة ١٨٧٠ ، وكانت تصدر مرتين في الشهر ، ويطلع من كل عدد ٣٥٠ نسخة زيدت فيما بعد إلى سبعمائة ، وكان يكتب فيها من ينتخبون لذلك من ذوي المعارف ، وينشرون فيها ما يستحسن نشره بين الناس من الفوائد العلمية وتوسيع دائرة الأفكار .

وأما من الناحية الإخبارية فكانت روضة المدارس تعنى دائماً بأخبار امتحانات الطلبة في مختلف المدارس ، وما كان يقال في هذه الامتحانات من كلمات افتتاحية وأخرى ختامية ، وكلها تناء على الخديو أو الباشا لتشجيعه لحركة انتشار المدارس .

والحق لقد كانت (روضة المدارس) أول مجلة مصرية تعنى بالعلوم والآداب في البلاد . ومن هذا كانت أشبه شيء بمجلة من المجلات التي تصدر عن بعض كليات الجامعة في الوقت الحاضر . فكما أن المجلة العلمية مقصورة على الأساتذة الذين ينشرون فيها أبحاثهم وآراءهم، فكذلك كانت روضة المدارس مجالا لنشر هذه الأبحاث والآراء من جانب الأساتذة الذين ينتدبهم ديوان المدارس لمثل هذه المهمة ، وبعبارة أخرى كانت هذه المجلة التي تتحدث عنها معرضا للكتب التي يقوم بتأليفها الأساتذة والعلماء في مختلف العلوم والفنون . وكان كل واحد من هؤلاء الأساتذة أو العلماء ينشر كتابه فصلا فصلا بحيث إذا جمعت هذه الفصول في النهاية تألف منها الكتاب المطلوب في الطب أو الهندسة أو الجغرافيا أو التاريخ أو الكيمياء أو الفلك أو النبات أو الأدب والإنشاء أو الألفاظ والأحاجي والنوادر ونحو ذلك .

وكانت مجلة روضة المدارس تفتح صدرها أحيانا لنجباء الطلبة كي يكتبوا فيها بعض موضوعات إنشائية على سبيل

التشجيع . ومن الشبان الذين نشر لهم موضوعات في المجلة
الشاعر المصرى المعروف إسماعيل صبرى. وباختصار كانت هذه
المجلة أدبية علمية ثقافية ولا صلة لها مطلقا بالأمور السياسية
والاجتماعية .



الصحافة الشعبية

أو شبه الرسمية

كيف بدأت الصحافة في مصر بداية غربية كل
الغرابية . فقد كانت تتألف من الصحف الفرنسية
التي أصدرتها الحملة الفرنسية، ثم خرجت هذه الحملة وتلاها محمد علي
فاستطاع هذا الأخير أن يبدأ الصحافة الرسمية المصرية بالمعنى الصحيح.
وهذا الذي يقال عن الصحافة الرسمية يمكن أن يقال مثله
على وجه التقريب عن الصحافة الشعبية . فقد بدأت هي الأخرى
بداية غربية كل الغرابية . بدأت « بصحيفة السلطنة » التي ظهرت
سنة ١٨٥٧ وكانت لسان حال السلطان العثماني تدافع عن مصالح
السلطان السياسية ، وهي المصالح التي قضت يومئذ بمحاربة سعيد ؛
لأنه الوالي الذي أصدر لائحة يقال لها اللائحة السعيدية ، أصبح
بها العلاح المصري مالكا للأرض التي يزرعها ، وألغى سعيد كثيرا
من الضرائب التي أثقلت كاهل هذا الفلاح المصري ، وقضى على
نظام الاحتكار . ولم يقف سعيد عند هذا الحد من حدود
الإصلاح حتى أخذ يحارب الارستقراطية التركية في داخل

الجيش المصرى ، ويعود إلى استخدام المصريين ، ويسعى سعياً
حقيقاً فى أن يحتفظ لهذا الجيش بنقاوته من العناصر الأجنبية .
وعلى قدر ما قرأت هذه الأعمال سعيداً من قلوب المصريين ،
باعدت بينه وبين السلطان العثمانى فى ذلك الحين . فلم يجد هذا
السلطان بدا من أن يسلك طريق الدعاية ضد هذا الوالى . ومن ثم
فكر فى نشر هذه الجريدة الشعبية التى أشرنا إليها . والعجيب
أنه بينما فطن السلطان العثمانى لخطورة هذا السلاح العظيم — وهو
سلاح الصحافة والدعاية — إذا بسعيد صاحب هذه النهضة
الاجتماعية التى توشك أن تكون انقلاباً فى حياة المصريين ،
لم يفتن إلى شىء من ذلك ، بل تراه — فوق ذلك — يفض
النظر عن الصحف المصرية الرسمية التى بدأها جده محمد على لهذه
الغاية نفسها ، وهى الدعاية فلم يشجع على استمرار الوقائع
المصرية ، ولم يفكر فى إنشاء جريدة أخرى من الجرائد الرسمية .
ولا خطر على باله أن يعدل عن الصحافة الرسمية إلى الصحافة
الشعبية .

* * *

واستمر الحال على ذلك حتى أتى (اسماعيل) فكان حاكماً
من طراز غير الطراز الذى عرف به (سعيد) . كان يؤمن

بالدعاية لإيماننا جل عن الوصف ، وكان يؤمن بالصحافة كما لم يؤمن بها حاكم في زمانه في الشرق، وكان شديد الولع كذلك باحتذاء الأوروبيين في كل صغير وكبير من الأمور أراد أن يقلدهم في نظام الحكم ، وفي مظاهر التحضر والتدين ، وأراد أن يقلدهم في ميدان الثقافة والتعليم . وبدأ للناس رجلا يرى التقليد غاية في نفسه وادس وسيلة إلى الأغراض السياسية التي كان يهدف إليها . فإذا كان لأوروبا مجالس نيابية فلا بأس من أن يكون لمصر مجالس نيابية ، ولو لم تكن حقيقية . وإذا كان لأوروبا صحافة شعبية إلى جانب الصحافة الرسمية فلا بأس من أن تكون لمصر صحف شعبية ، ولو كانت في حقيقة الأمر صورة دقيقة من الصحف الرسمية .

وهكذا اقترن ظهور الصحافة الشعبية في مصر بظهور اسماعيل ، وهو الرجل الذي أحاطت به ظروف سيئة بسبب الديون التي تورط فيها وأصبحت سيئاً في تدخل الدول الأوروبية في شئون مصر الداخلية ، ووقوعها تحت رقابة مالية مشتركة بين إنجلترا وفرنسا .

في ذلك الجو الملبد بالغيوم فكر اسماعيل في أن ينشئ في مصر صحافة شعبية بالاسم رسمية بالفعل . وحاول أن يعتمد

عليها في الدفاع عنه وعن سياسته ضد السلطان العثماني من جهة ،
وضد الدول الأجنبية من جهة ثانية . ونسى إسماعيل أن
الصحافة الشعبية سلاح ذو حدين ، أما أحدهما فيمكن تصويبه
نحو أعدائه بمن ذكرنا ، وأما الآخر فلا بد من تصويبه نحو اليد
التي صنعتها ولو كان ذلك بغير قصد منه .

* * *

أما تلك الصحف الشعبية التي ظهرت على يد إسماعيل فكانت
على ضربين :

أولها — الصحف الشعبية التي تولتها أقلام مصرية وعقول
مصرية .

وثانيهما — الصحف الشعبية التي تولتها أقلام سورية
وعقول سورية .

ومن الأمثلة على الضرب الأول :

صحف وادي النيل ، ونزهة الأفكار ، وروضة الأخبار ،
والوطن .

ومن أمثلة الضرب الثاني :

صحف الأهرام ، ومصر ، والتجارة ، والمحروسة .

ولا بأس أن نقف وقفات قصيرة عند صحف الضرب الأول

وأخرى عند صفى الضرب الثانى . وبذلك نعطى للقارىء صورة
من صحافة مصر الشعبية فى طورها الأول وهو طور النشأة .

• • •

صحيفة وادى النيل :

قلنا إن إسماعيل سلك فى محاربته التدخل الأجنبى طريقين هما :
مجلس شورى النواب الذى تم تأسيسه عام ١٨٦٦ . والصحافة
الشعبية التى بدأت بصحيفة وادى النيل . وصدر العدد الأول
فى يولية سنة ١٨٦٧ .

من أجل ذلك ، أوحى إسماعيل إلى عبد الله أبى السعود
بإنشاء جريدة وادى النيل ، وكان عبد الله أبى السعود موظفا
من موظفى الدولة ؛ تخرج فى مدرسة الألسن على يد أستاذه
رفاعة رافع الطهطاوى ، وعين فور تخرجه فى قلم الترجمة الذى
أعيد إنشاؤه فى عهد إسماعيل ، ثم أصبح ناظراً لهذا القلم عقب
وفاة أستاذه رفاعة . وكان فى الوقت نفسه أستاذاً لمادة التاريخ
بمدرسة دار العلوم ، وأستاذاً لمادة الترجمة فى مدرسة الألسن .

على أن هذه الصحيفة الشعبية الأولى كانت صورة دقيقة
من الصحيفة الرسمية القديمة ، ونعنى بها الوقائع المصرية .

ووادى النيل جريدة شعبية علمية أدبية سياسية أسبوعية ،
تصدر مرتين في كل أسبوع ، وكانت تطبع بمطبعة شعبية مقرها
« حارة كوم الشيخ سلامة بالموسكى ، بمدينة القاهرة .

وأما موادها الصحفية فلم تكند تخرج في مجموعها عما يلي :

- ١ — الحوادث الداخلية — أو — أخبار الأسبوع .
- ٢ — مجلس شورى النواب المصرية ، وأخبار هذا المجلس
منقولة بالنص عن صحيفة الوقائع الرسمية .
- ٣ — إعلانات عن الصحف الجديدة التى تصدر بمصر
والشام ، أو غيرهما من أقطار العالم الإسلامى .
- ٤ — وريقات وادى النيل وهى : عبارة عن صفحة
الإعلان عن المطبوعات الجديدة ، والمنشورات المفيدة .
وفى هذه الصفحة كان يعلن رجال العلم والأدب عن كتبهم
الحديثة .

٥ — بعض فصول من الكتب الأدبية ، والتاريخية
القديمة . ولعل أول كتاب عنت بنشره صحيفة وادى النيل هو
كتاب رحلة ابن بطوطة .

٦ — مادة الزراعة .

صحيفة ترهة الأقطار :

وهي صحيفة شعبية ، اشترك في إصدارها أديبان كبيران هما :
ابراهيم المويلحي وعثمان جلال . وذلك سنة ١٨٦٩ ، وكانا
يظنان أنهما يستطيعان أن يتمتعا فيها بالحرية الصحفية الصحيحة ،
وأن يكونا في حل من نقد الحكومة ، وأن يقوما في الوقت
نفسه بالغرض من إنشائها كذلك ؛ وهو الدفاع عن سياسة
إسماعيل ضد عدويه الكبارين ، وهما الدولة العلية ، والدول
الأوروبية .

ولكن بالرغم مما لقيته هذه الصحيفة من عطف الخديو
وبره وتشجيعه ، وبالرغم من الطابع الأدبي الذي امتازت به
إذ ذاك ؛ فإنها احتجبت عن الظهور بعد قليل لإسرافها في التجديد
واستمسакها بالحرية التي لم تكن ملائمة للظروف المحيطة بمصر
في ذلك الوقت .

صحيفة روضة الأقطار :

وصاحبها محمد أفندي أنسى ، وهو ابن الصحفي السابق الذكر
عبد الله أبي السعود أفندي . ظهرت عام ١٨٧٥ — وهو العام

الذى شهد ميلاد صحيفة من أهم الصحف المصرية — وهى
صحيفة الأهرام .

وامتازت الفترة التاريخية التى ظهرت فيها هاتان الصحيفتان
بهدره سياسى استراح فى أثاثه المصريون بعض الشيء ، وكانت
الثورة العرابية تخفى أشراطها ، ولا يكاد يوجد فى مصر من
يتنبأ بنشوبها .

وصحيفة روضة الأخبار « صحيفة مصرية معدة لنشر
الإعلانات الخصوصية والعمومية ، زراعية ، ومالية ، وتجارية ،
وكانت تتألف من أربع صفحات موزعة عليها المواد على
النظام الآتى :

- ١ — مادة للإعلانات الرسمية .
- ٢ — ومادة الأخبار الداخلية .
- ٣ — ومادة عنوانها (تذييل روضة الأخبار) تشتمل على
قصة مترجمة من الفرنسية إلى العربية وتشر على مرات متتالية .
- ٤ — ومادة بعنوان (توجيهات وتعيينات) .
- ٥ — ثم مادة الإعلانات على نحو ما تفعل صحيفة وادى
النيل تماماً .

الطور الثاني
من أطوار الصحافة المصرية
"طور الشباب"
(من سنة ١٨٧٧ — إلى سنة ١٨٨٢)

اقترن الطور الثاني من أطوار الصحافة المصرية — وهو طور الشباب — بظهور طائفة من الصحف أولاها الأهرام والوطن ولتحدث أولا عن هذه الأخيرة :

جريدة الوطن :

وهي جريدة سياسية أسبوعية صدرت عام ١٨٧٧ لمحررها «ميناخايل أفندى عبد السيد»

ولهذه الصحيفة المصرية كما لزميلاتهما من الصحف السورية التي ظهرت بالديار المصرية ، ظرف يخالف الظرف الذى نشأت فيه الصحف الشعبية التى تحدثنا عنها من قبل.

وخلاصة هذا الظرف الأخير ، أن الحرب نشبت بين تركيا وروسيا . وكانت الصحف المصرية قبل نشوب هذه الحرب ممنوعة من الخوض فى الأمور السياسية ، ومحظوراً عليها أن تنقل شيئاً من هذه الأخبار عن أية صحيفة أجنبية ، فلما قامت هذه الحرب الروسية التركية انطلقت صحف الشعب تخوض فى الحديث عنها وتعنى بتفاصيلها ، وتنقسم فى ذلك فريقين : فريق يظهر الإعجاب بأبطال الترك — كما فعلت جريدة مصر لصاحبها أديب إسحق ، وفريق يظهر الإعجاب بأبطال الروس — كما فعلت جريدة الوطن . لصاحبها ميناخايل عبد السيد . .

وكان على مصر أن تقدم العون في هذه الحرب لتركيا ،
ولكنها لم تكن في حالة مالية طيبة تساعد على تقديم المعونة .
من أجل ذلك وقعت الحكومة المصرية موقف التفاوض عما تثيره
الصحافة المصرية من أحاديث حول هذه الحرب التي نشبت بين الترك
والروس . وتلك هي المرة الأولى في تاريخ مصر الحديث التي سمح
فيها الوالى للصحف المصرية بالخوض في الشؤون السياسية .
ومن ثم كان فضل الحرب الروسية التركية على الصحافة المصرية
عظيما وأثرها كبيرا في تحويلها إلى صحيفة جديرة باسمها متمتعة
بحريتها على هذا النحو .

ومن الأمور السياسية التي غاضت فيها الصحف الوطنية
المصرية أمر تعيين أول وزارة مصرية برئاسة نوبار — وهي
الوزارة التي عرفت في تاريخنا الحديث باسم الوزارة المختلطة ؛
لأنها كانت تتألف من وزراء منهم اثنان أجنيان أحدهما فرنسي
والآخر إنجليزى . وقد رأينا صحيفة الوطن تستقبل هذه الوزارة
استقبالا حسنا ، وتتفائل خيرا بقدمها وتصفها بأنها الوزارة
المسئولة التي ستصلح ما أفسدته العهود السابقة وترفع الضرائب
عن كاهل الفلاح !

والعجب في ذلك من أن التيار قد جرف الصحافة الوطنية

إذ ذاك واضطرها إلى أن تكيل الثناء للوزيرين الأجنيين ا اومع
هذا فقد أثبتت الأيام أن وزارة نوبار هذه لم تغلح في إصلاح شئون
البلاد ولم تحقق أملا من آمال ميخائيل عبد السيد . . .

غير أن لهذه الجريدة الشعبية الصميمة «وهى جريدة الوطن»
مواقف محمودة في مجال الشورى ؛ لأنها الصحيفة التى وقفت
تدافع عن النواب المصريين دفاعاً مجيداً ، وقد اضطرت من أجل
ذلك إلى أن تغير من خطتها الأولى وتعود إلى مهاجمة الوزيرين
الأجنيين، فاستبدلت بالثناء عليهما نقداً وذكماً وتجريراً لهما، وبلغت
في ذلك ما لم تبلغه صحيفة أخرى من الصحف الشعبية باستثناء
جرائد أديب إسحق .

وبدع الصحف المصرية جانباً ، وتنظر في بعض الصحف
التي قام على نشرها السوريون في مصر في ذلك الحين ومنها :

جريدة الأهرام :

فرّ من السوريين من فرّ إلى مصر ليتمتعوا فيها بحرية نسبية ،
وينجوا بأنفسهم من ظلم الولاة العثمانيين الذين كانوا يشهرون
عليهم سلاح القانون المخيف — قانون المطبوعات .

وكان من أولئك السوريين شاب يدعى (سليم تقلا) شوه

في نظارة الخارجية وهو يطلب الإذن له بإنشاء مطبعة تسمى (مطبعة الأهرام) بمدينة الإسكندرية بجهة يقال لها (المنشية) . كما طلب يومئذ أن يؤذن له بطبع جريدة (الأهرام) . وقال إنه سيقصرها على البرقيات التجارية والعلمية ، وينشر فيها تقفا من الكتب الأدبية العربية ، وبعض قصائد من الشعر .

واشترطت نظارة الخارجية على صاحب الأهرام ألا يخوض في السياسة بحال من الأحوال ، ويبقى الحال على ذلك حتى قامت الحرب الروسية التركية — وهي الحرب التي قلنا إنها فتحت الباب على مصراعيه أمام الصحافة المصرية ، لكي تخوض في الأمور السياسية بقدر كبير من الحرية . غير أن الأهرام باغت في استخدام هذا القدر من الحرية حتى تعرضت للإبذار من جانب الحكومة المصرية فقد حذرتها هذه الحكومة مراراً من كتابة المواد المهيجة للخواطر العامة . ثم تظهر في الأفق المصري غيوم تكفهر لها سماء مصر في عهد اسماعيل ، وتخوض الأهرام هذه المعركة ، وتأخذ في معارضة الخديو معارضة ساقرة^(١) ، بل تقف في جانب فرنسا

(١) من ذلك أن الأهرام وصفت الخديو بأقذع الصفات وقالت عنه إنه صرف مائة ألف جنيه من دم الفلاح وأنه يمثل هذه التصرفات السيئة يفضى بالبلاد إلى الهاوية .

في أثنائها بطريقة واضحة، فتضطر الحكومة إلى إغلاق الأهرام ،
ويضطر صاحبها إلى إصدار جريدة أخرى هي (صدى الأهرام)
نم تأمر الحكومة بإغلاق هذه الجريدة الأخيرة ، وأخيراً
تسمح بالإفراج عن الأولى . وذلك بفضل المساعي التي بذلتها
القنصلية الفرنسية لدى الحكومة المصرية . وهكذا تبدو حياة
(الأهرام) في طورها الأول حياه كفاح من أجل الوجود
ومن أجل الحرية وتظهر في أثناء ذلك جرائد أخرى هي جرائد
مصر والتجارة والمحروسة والعصر الجديد . وهي جرائد اشترك
في إصدارها كل من سليم النقاش ، وأديب اسحق . لإبتداء من
سنة ١٨٧٧ وهي السنة التي صدرت فيها مصروسنة ١٨٧٨ وهي
السنة التي صدرت فيها التجارة وسنة ١٨٨٠ وهي السنة التي
صدرت فيها كل من العصر الجديد والمحروسة .

وشاركت الصحف كلها في المعركة السياسية التي بدأت بالحرب
الروسية التركية ؛ وهي المعركة التي جعلت من الصحافة المصرية
صحافة رأى — أو على الأقل — في سبيلها لأن تكون
صحافة رأى وقد كان لهذه الصحف السورية على
اختلافها — ونخص بالذكر منها صحيفة التجارة — مواقف
عظيمة تذكر لها بالثناء ومنها الموقف الذي وقفته من الأجانب

الأوربيين المقيمين في مصر . فقد أوحى هؤلاء الأجانب إلى بعض الصحف الأوربية التي تصدر في مصر بأن تشوه من سمعة النواب وبعض الشخصيات المرموقة في البلاد وتتهمهم بالرشوة فتصدت التجارة — ومعها زميلاتها من الصحف السورية — للرد على تلك الصحف الاجنبية حتى أسكتتها .

واختفى الكثير من هذه الصحف السورية ، وبقيت صحيفة واحدة من هذه الصحف فقط هي (الأهرام) وذلك بالرغم من أنها كانت ضالعة مع القنصل الفرنسي . فما السبب في ذلك يا ترى ؟ أكبر الظن أن هذه الجريدة السورية القديمة ؛ وهي الأهرام كانت لها من المقومات الذاتية ما ضمن لها البقاء ، ومن عناصر القوة ما كفل لها الازدهار والتماء . وربما كان من هذه المقومات — على سبيل المثال — عنايتها بالبرقيات الخارجية ، واستكثابها لكبار الشخصيات في البيئة المصرية ، ومنها شخصية محمد عبده . ثم منها كذلك — أي من هذه المقومات — « الحس الصحفي » الدقيق الذي يتميز به صاحب الأهرام . وكانا من أجله يشاركان العمال في المطبعة ، ويقومان على تنسيق الصحيفة بنفسيهما ، ولا يكلان هذا الأمر لغيرهما من المحررين والعمال . وإن ننس لا ننسى كذلك الدهاء والذكاء اللذين امتاز بهما صاحب الأهرام ، وبهما كانا يخرجان

من المآزق العديدة التي تعرضت بسببها الأهرام كثيرا للتعطيل والإلغاء .

نعم تمتاز صحيفة الأهرام إلى يومنا هذا بالمرونة السياسية . حسبها هذه الصفة الأخيرة لكي تبقى على الدهر هذه المدة الطويلة ، ولكي تغلخ في مصر خلود الأهرام ، التي بناها الفراعنة القدماء واختاروها الصحيفة لتكون عنوانا لها ولطبعتها إلى اليوم !

رأينا كيف كانت الصحف الشعبية في أول أمرها صورة دقيقة من الصحف الرسمية . فلاحظ لها من حرية القول أو النقد ، ولا أمل لها في أن تكون صحافة رأي . وبقيت الصحف الشعبية على هذا النحو حتى نشبت الحرب الروسية التركية . فبدأت تشب قليلا عن الطوق ، وتخوض فيما كان محظورا عليها أن تخوض فيه من الكلام في الموضوعات السياسية . نعم — كان من صالح الحكومة المصرية في أثناء تلك الحرب أن ترخي الحبل للصحافة لتتمرن على القفز أو العدو وبالفعل أرخت الحكومة للصحافة من الحبل ولكنها بقيت تمسك بطرفه ولا تسرف في بسطه كل البسط .

* * *

ثم ما كادت الصحافة الشعبية تجتاز تلك المرحلة ، حتى وجدت نفسها تظفر في كل يوم بقدر لا بأس به من حرية القول ؛ وهو قدر وصل في كثير من الأحيان إلى حد التطاول على ولي الأمر !! ولنا أن نمد القارىء ببعض الأمثلة من هذه الحرية التي تمتعت بها الصحف الشعبية في بداية هذا الطور الثاني الذي نتحدث عنه :

فهذه صحيفة (مرآة الشرق) ^(١) لمحررها (إبراهيم اللقاني) تصف فساد الحال في مصر ، وتبحث عن أسباب هذا الفساد فتصرح بأنها ترجع إلى أمراء البيت المالک وجهلهم بواجباتهم نحو وطنهم ، وسوء تدبيرهم ، واختلال أحوالهم ، لا يعرفون شرعا ، ولا يرضون قانونا ، ولا يسمعون رأيا ، ولا يقبلون نصحا ، بل تعدوا الحدود وانتهكوا المحارم ، وثلوا الأعراض وحاربوا العدل ، فطغوا وبغوا ، ونهبوا وسلبوا ، وقتكوا وهتكوا شادوا القصور ، وغرسوا البساتين ، واقتنوا الحور والولدان ... وتألقوا في المآكل ، وتفننوا في المشارب ، وزينوا الملابس وسحبوا مطارف المعجب والخيلاء . وأفراد الرعية على

(١) جريدة سياسية علمية أديبه تصدر بالقاهرة يوم السبت والأربعاء من كل أسبوع . وصاحبها سليم عنجورى الدمشقي . ومحررها ابراهيم اللقاني .

مرآى منهم حفاة عراة يتضورون جوعا ، ويتلظون ظمأ ، ويموتون من البرد (١) .

ثم هذه جريدة (مصر) وهذه زميلاتها (التجارة) — وكان محررها سليم النقاش وأديب إسحق ، أما أولاهما فتدافع دفاعا مجيدا عن كرامة المصريين الذين لا يعاملون معاملة الأجانب المقيمين معهم في بلادهم . وأما الأخرى فتهاجم قانون المطبوعات وتعجب كيف أن هناك إدارتين ، واحدة منهما للصحف الأجنبية والأخرى للصحف الوطنية ، ولكن البون شاسع بينهما في معاملة الصحف .

في ذلك الوقت كان السيد جمال الدين الأفغانى في مصر يبذر بذور الثورة الفكرية ، ويفرس في نفوس المصريين حب الحرية والنخوة الشرقية فتأثر الصحفيون بتعاليم السيد جمال الدين الأفغانى كل التأثر، وظهر ذلك في الصحف التى صدر الكثير منها بوحى هذا الرجل في ذلك الحين .

وأنظر إلى أديب إسحق في جريدة مصر وهو يقول : في

(١) ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ٩٨ — نقلا عن صحيفة مرآة الشرق بتاريخ ٢٨ من أبريل ، تاريخ أول مايو سنة ١٨٧٩ .

الامتيازات الأجنبية : « لا ريب في أن امتياز بعض الناس عن بعض في وطن واحد يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حساً ومعنى ... وقد حان لهذه البلاد أن تنتعش من عثرتها . وتفلت من ربقتها ... » الخ هذه العبارات التي استفز بها الشعب المصري ضد هذه الامتيازات الأجنبية ، وما أشبه هذه العبارات بما كان يردده السيد جمال الدين الأفغانى في هذا المعنى .

وفي صحيفة (مصر القاهرة) كتب أديب إسحق أيضاً يقول في وصف خطته التي سينتهجها نحو الحكومة المصرية : « ... سأكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح ، متجافياً عن التعريض والتلميح ، وأجلو آراء ذوى النقد ، وأبين نقائص أهل الحل والعقد ، وأوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحاً (أولى الأمر) ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهماً (أمناء الأمة) ، ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلاً (ولاية النظام) »

« وقصدى من ذلك أن أثير بقيه الحمية الشرقية ، وأهيج فضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيى الغيرة في قلوب العارفين ، أيعلم قومى أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ومالاً منهوباً فيطلبوه ، وليستصغروا الأنفس والتفائس

فى جنب حقوقهم ، فن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن عاش بعد أولئك فهو سعيد .

هكذا بلغ أديب إسحق فى جرأته على الحكومة فى عهد رياض إلى هذا الحد ، لأنه كان قد نفى من مصر إلى باريس ، وهناك شعر هذا الأديب بمطلق الحرية فيما يريد .

وهنا نرجع بالتاريخ خطوة واحدة إلى الوراء فنسمع بعزل اسماعيل وقد كان لهذا النبأ رنة فرح عظيم فى جميع الصحف الشعبية على اختلافها ، وأخذت هذه الصحف تحمد الله على عزله ، وتبشر البلاد بعهد جديد يكون أساسه الشورى ونصرة الحق ، وإباحة الحرية ، وتعليم الشعب ، والإكثار من المرافق الخيرية ، وتمهد كل هذه الظروف لنشوب الثورة العراقية فتبلغ هذه الثورة بالصحافة الشعبية آخر الشوط وحسبنا هنا أن نسوق مثلاً واحداً على ما نقوله .

كتب النديم فى أثناء الثورة العراقية مقالا نشره فى السادس من شهر مايو سنة ١٨٨٢ بجريدة (الطائف) وعنوان المقال « سلب الأملاك من الملاك » هاجم فيه اسماعيل واتهمه بأنه هو الذى حرم الناس أملاكهم ، واستأثر بأرزاقهم . ثم مرض

النديم في أثناء ذلك ، فاتم المقال ، وأرسل يعتذر عن تحرير باقي
الجريدة إلا ما كان خاصاً بتاريخ اسماعيل باشا ، فإنى أكلف
بكتابته لأن نشره علاج لما بي ، ١

وتدع الحديث عن الحرية التي تمتعت بها الصحف الشعبية ،
ونتظر في المهم من تلك الصحف التي ظهر بعضها في طور النشأة
وأدرك الطور الذي تلاه ، وقد شهد هذا الطور طائفة من كبار
الصحافيين الذين تفخر بهم مصر ومن هؤلاء على سبيل المثال :
١ — الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - وقد اشترك في تحرير
(الوقائع المصرية) ، كما اشترك في تحرير (الأهرام) . وتعاون
مع أستاذه جمال الدين الأفغانى في باريس على إصدار مجلة
(العروة الوثقى .

٢ — ومنهم الشاب السورى المتوقد الذكاء (أديب اسحق)
وقد شارك في تحرير صحيفة مصر ، وصحيفة مصر الفتاة ، وصحيفة
مصر القاهرة التي أصدرها في باريس كما قلنا .

٣ — ثم منهم السيد عبد الله النديم ، وقد أصدر صحيفة
(التتكيك والتبكيك) وصحيفة (الطائف) وصحيفة (الأستاذ)
٤ — ثم منهم صاحب الأهرام .

٥ — ومنهم كذلك الكاتب الإسرائيلى الذائع الصيت

(يعقوب بن صنوع) صاحب الصحيفة الهزلية المعروفة
« بأبي نظارة » .

وشامت الظروف أن يكون هؤلاء جميعا بدون استثناء
تلامذة أوفياء للسيد جمال الدين الأفغانى : تفخ فيهم الرجل
من روحه ؛ وأرحى إليهم بإصدار كثير من الصحف التى طلعوا
بها على الناس .

ثم جاءت الثورة العرابية نفسها ثمرة لهذه الحركة ، فقامت
على النحو الذى يعرفه التاريخ ، وكانت عاملا آخر من عوامل
النهضة الصحفية . ولو نجحت هذه الثورة لتغير وجه الصحافة
المصرية والحياة المصرية تغيرا لا تعلم مداه .

الوقائع المصرية والأستاذ الإمام :

بدأ الشيخ محمد عبده يكتب فى الوقائع المصرية من شهر
أكتوبر سنة ١٨٨٠ ، ومنذ ذلك التاريخ ظهرت الوقائع للناس
بمظهر جديد وأصبحت منبرا من منابر الرأى العام يلقى من فوقه
ذوو العلم والخبرة كثيرا من آرائهم فى ميدان الإصلاح الاجتماعى
والإصلاح السياسى . وكانت طبيعة هذا الشيخ أدنى إلى الاعتدال
كما كانت عقليته تطويرية أكثر منها ثورية . ومن هذه الناحية

الآخيرة فقط يأتي الفرق بينه وبين أسناده جمال الدين الأفغانى .
يدلنا على ذلك مقال الشيخ محمد عبده نشره فى الوقائع بعنوان
(خطأ العقلاء) قال فيه :

« إن كثيراً من ذوى القرائح الجيدة إذا أكثروا من دراسة
الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالها الحاضرة فتولد
فى عقولهم أفكار جلية ... ولكونهم اكتسبوا هذه الأفكار
من الكتب والأخبار ، ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك
تراهم يظنون أن وصول غيرهم إلى الحد الذى وصلوا إليه أمر سهل
مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، قريب الوقوع مثل قرب الكتب
من أيديهم ، فيطلبون من الناس أن يكونوا على مشاربهم ،
ويرغبون فى أن يكون نظام الأمة وناموسها العام طبق أفكارهم وإن
كانت الأمة عدة ملايين وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين .
« تلك ظنونهم التى تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب
والمطالعات ... لكنهم أخطأوا خطأ عظيماً لأنهم لم يقارنوا
بين ما حصلوه وبين طبيعة الأمة التى يريدون إرشادها ولم يختبروا
قابلية الأذهان واستعدادات الطبائع للالتقياد إلى نصائحهم الخ ، .
وبقيت مقالات الأستاذ الإمام هادئة كهدهوء الشمس ،
محصورة فى المجال الاجتماعى البحت ، حتى قامت الثورة العراقية

فتحولت مقالاته إلى سياسية ، وظل في هذا الاتجاه الجديد إلى أن نفي من البلاد المصرية عقب الثورة العراقية ، ورحل إلى باريس حيث التقى بأستاذه الأفغانى من جديد . وهناك اتفق الرجلان على إصدار العروة الوثقى :

الأستاذ الإمام والعروة الوثقى :

وكان لهذه الصحيفة الخطيرة أهداف تنحصر فيما يلى : —
أولاً — إفهام الشرقيين جميع الواجبات التى كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم ، وبيان الطرق التى يسلكونها لإدراك ما فات .

ثانياً — إفهام الشرقيين كذلك أن الأمل فى النجاح قريب ولا داعى فى بلوغ ذلك إلى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب الفتور ويحبط من العزائم .

ثالثاً — دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التى كان عليها الآباء والأسلاف . فلا يصح آخر هذا الأمر (يريد أمر الدين) إلا بما صلح به أوله .

والمثل الأعلى للمسلمين فى نظر العروة الوثقى هو ما كان عليه الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين .

رابعاً — إبطال الزعم بأن المسلمين لا يتقدمون في مضمار الحياة ماداموا متمسكين بدينهم لأن دينهم في نظر من لا يفهمونه من الأوروبيين يدعو إلى التواكل .

خامساً — تقوية الروابط بين الأمم الشرقية وتأيد المصالح المشتركة بينهم .

سادساً — وصل الشرقيين بما يهمهم من الأخبار العامة والأخبار الخاصة . ووصلهم كذلك بسياسة الدول الأجنبية تجاه الشرق .

صرح الرجلان بأهداف الجريدة بهذه الطريقة الصريحة الجريئة ، فسرت بين الشرقيين سريان البرق . وتنافسوا جميعاً في اقتنائها وتسابقوا كذلك في اعتناق أفكارها وآرائها . ونجحت الجريدة بالفعل في شفاء المسلمين من مرض (الوهم) الذي تسلط على نفوسهم وخيل إليهم أنهم أصبحوا لا يستحقون نعمة العلم ولا نعمة الحرية .

وفي مجال هذه الأفكار والآراء دارت مقالات الشيخ محمد عبده التي نشرها في العروة الوثقى ، وحملت هذه المقالات طابع الدرس والشرح لجميع العلل التي أصابت العالم الإسلامي في ذلك الوقت وكان من أخطر هذه العلل في نظر الشيخ سوء فهمهم

(لعقيدة القضاء والقدر) — أو على الأصح — سوء فهم الأوروبيين لهذه العقيدة التي يحتنقها جمهور المسلمين ، واعتقاد أولئك الأوروبيين أنها سبباً في تأخر المسلمين ووقوعهم فريسة للاستعمار الأوروبي الذي زعم أنه يقودهم إلى العلم والحضارة .

قال الشيخ :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد من شجاعة الجبر تدبعه صفة الجرأة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويثبت على اقتحام المهالك التي ترتجف لها قلوب الأسود وتذشق منها مرائر النمر . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال ، ويحملها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها . بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نضرة الحياة ، كل هذا في سبيل الحق الذي دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة » .

* * *

أديب إسحق ومبريرة مصر :

صدر العدد الأول من هذه الصحيفة محررها أديب إسحق

في الثلاثين من شهر يولييه سنة ١٨٧٧ ، وكان أديب يصف فيها الحريات التي تتمتع بها الدول الأجنبية ، ويحاول أن يشرح للشعب المصري حقوق الحاكم وحقوق الرعية ، كما تصدى في هذه الجريدة لشرح المعاني الجديدة على أذهان الشعب المصري ، وهي معاني الوطن ، والوطنية ، وتعرض لوصف المذاهب السياسية والاجتماعية في أكثر البلاد الأوروبية ، ومن أهمها الدولتان الألمانية والروسية . وهذه كلها أشياء كانت غريبة على ذهن المصري كل الغرابة . فجاء شاب كأديب إسحق نهل من الثقافتين الشرقية والغربية ، وتولى بنفسه تثقيف الشعب من هذه الناحية ، وكتب مقالاته كلها بأسلوب يذكر بأساليب الأدباء الكبار في تاريخ النثر العربي من أمثال ابن العميد وبديع الزمان والقاضي الفاضل وغيرهم .

واختلف أديب إسحق مع ناظر النظار (رياض) فاضطر هذا الأخير إلى أن يأمر بتفنيه إلى باريس ، فانتقل الرجل إليها بجريده وهو في حالة نفسية مؤلمة ، وهناك في باريس أطلق على جريده اسم :

هزيمة مصر القاهرة :

وجاء في أول عدد من أعداد هذه الصحيفة الأخيرة قوله :
« الحمد لله وحده . هذه صحيفة مصر : طواها الاستبداد فماتت
شهيدة . ثم أحييتها الحرية فعاشت سعيدة . ترسل إلى المریدین
والأولياء ، ونهاء القراء منية إليهم أن قد آتاني الله نعمة
الحرية ، ومن أوتي هذه النعمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، ولسوف
ترون منى رواية الصادق ، في رأى الآمل ، في عزم الآيس .

« حاول رياض باشا المتصدر في بلاد مصر إطفاء نوري ،
وأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الظالمون . أماتنى بدعوى
الحرص على الخواطر أن أثيرها للفتنة ، بل خاف أن أكشف
الحجاب عن حقيقة أحواله . فزعم أنى ناصبته الشر نفرة
منه وتشيعا لسواه ، وما أنا فى شيء من ذلك . فإنى أعز نفسا ،
وأنبى قصدا من أن تستميلنى الأشخاص ، وإنما أميل مع
المقاصد فما كان منها ملائما للشرب الذى أحسه حقا :
فذلك من دون المشارب مشربى

وذلك ما بين المذاهب مذهبي
وأما ما كان منها مغايرا للبدا الذى أراه عدلا :

رميتُ به من حائق رمني حائق
متى يرم لم يخطيء وإن يبغ يدأب
ومات أديب إسحق في التاسعة والعشرين من عمره .

* * *

عبر الله الشريم :

والآن ، أنتقل إلى صحفى النصف الثانى من القرن الماضى
غير منازع . ونعنى به السيد عبد الله النديم ، وهو أعجوبة
عصره فى كل شىء : أعجوبة عصره فى نشأته ، وفى تعدد جوانبه ،
وفى شعبيته ، وفى مواهبه .

والحق أن النديم من حيث مواهبه الكثيرة التى منها
الكتابة والشعر والخطابة كان كنزاً عظيماً من كنوز مصر ،
غير أن هذا الكنز كان موزعاً على نواح شتى . ولو أن النديم
تفرغ لناحية واحدة فقط ، كناحية الصحافة ، لطورها ، وقفز
بها إلى الغاية المرجوة منها فى أقل مدة ممكنة . غير أن العارفين
بسيرة هذا الرجل يرون أنه شتت مواهبه بين نواح ثلاث ،
هى ناحية القصة ، وناحية القصيدة ، وناحية المقال . وذلك كله

عدا الخطابة والزجل ، وعدا الكتب الأدبية القريبة الشبه بالمقامات .

ومهما يكن من أمر فقد كان أهم الصحف التي أصدرها النديم :

أولاً — صحيفة التبكيت والتسكيت :

صدر العدد الأول منها في السادس من شهر يونية سنة ١٨٨١ وكان فيها معنيا بالإصلاح الاجتماعي والإصلاح الخلقي، وكتبها باللغتين العربية والعامية . قصد بالعربية طبقة الخاصة ، كما قصد بالعامية طبقة العامة :

وشاء أن يكون اسم الصحيفة دالاً عليها . فقد كانت طريقة النديم أنه يقسم مقاله في هذه الصحيفة إلى قسمين : أولها — (تبكيت) بمعنى توبيخ للمجتمع المصري على عيب من عيوبه . وثانيهما — (تسكيت) على هذا المجتمع في هذا العيب من عيوبه . ولا شك أن هذه طريقة من طرق الإصلاح الاجتماعي في غاية البراعة . فوق أنها تحتاج من محررها إلى أقصى ما يمكن من الذكاء والمهارة .

ومن كتابات النديم العامية في هذه الصحيفة ما جاء بعنوان :

« كم فى الزوايا من خبايا » .
وعنوان : « هف طلع النهار » .
وعنوان : « تخريفة "خذ" من عبد الله واتكل على الله » .
وعنوان : « عربى تفرنج » الخ ...
فهذا قسم من أقسام الصحيفة .

وأما القسم الآخر من هذه الصحيفة فكان النديم يكتبه
باللغة العربية السليمة ويتجه فيه إلى الطبقة المثقفة المستنيرة .
ويسلك فى سبيل ذلك بعض الطرق الأدبية الممتازة مثل طريقة
الرمز فى الكتابة . فعل ذلك فى مقال له بعنوان :

(مجلس طي على مصاب بالافرنجى)

دخل به فى صميم المشكلة المصرية التى كان يفكر فيها المصريون
إذ ذاك ، وهى مسألة الديون التى تورط فيها إسماعيل ، وبسببها
أصبحت البلاد بالتدخل الأجنبى .

عبر (النديم) بلفظ (مصاب بالافرنجى) الذى هو داء
الزهرى عن الخراب الذى أصاب البلاد نتيجة لإسراف إسماعيل
هذا ، ووقعه فى براثن الدين . ثم وقوع البلاد فريسة التدخل
الأجنبى وفرض الرقابة الثنائية .

وعبر (النديم) بلفظ (مجلس طبي) عن العقلاء في الأمة .
وهم وحدهم القادرون على إنقاذ البلاد من هذا الخراب الذي
حل بها .

وكنى النديم بلفظ (المصاب) في ذاته عن مصر ، فصورها
بصورة قتي كان صحيح الجسم قوى الأعصاب جميل الصورة لطيف
المعشر . ثم ابتلى هذا الفتى بصاحب له (هو إسماعيل) أحسن
الظن به أول الأمر فأسلم له نفسه . ثم ما لبث أن وقف على
نواياه ، وعلم أن صاحبه هذا أوفى به على الهلاك وباعه في
الأسواق واشتراه منه سماسرة السوء من الأوروبيين ودعاة
الحضارة من الغربيين فانزلقوا به في مواطن الشبهات ووصلوه
بالكأس والطاس ، وانغمسوا به في دور البغاء . ففسدت صحة
الفتى ، ولزم الفراش ، ويثس من الشفاء ، وألقى به في قرية
قذرة لا أنيس له فيها ولا معين . ومر به قومه على حين غرة
فعرفوا داءه وفكروا في دوائه ، ووقفوا به سريان الداء
في مفاصله .

ثم قامت الثورة العراقية فانتقل النديم بصحيفته تلك إلى
الميدان واختار لها الزعيم أحمد عرابي اسماً آخر هو :

صحيفة الطائف :

وفىها كتب النديم مقالات كثيرة وعنيفة فى نقد إسماعيل وتوفيق ، وكتب مقالات أخرى فى وصف حالة الفلاحين وما انتهوا إليه من مؤس شديد ، ودعا الحكومة إلى وجوب العناية بهم لأنهم جزء من صميم الأمة المصرية . واستأثر الإصلاح النيابى فى مصر بجانب هام من جهود النديم فى صحيفة الطائف ؛ وخاصة أن الثورة العرابية فى أساسها ثورة دستورية قبل كل شىء .

غير أن الخطأ الذى ارتكبه النديم فى صحيفة الطائف هو الطريقة التى اتبعها فى تحرير هذه الصحيفة منذ انتقل بها إلى ميدان القتال ، وهناك أخذ يمد القراء بأخبار المواقع التى بين العرابيين والإنجليز ، وفيها طفق يموه على الأذهان بوصف شجاعة المصريين ومعدات المصريين ، وذلك بالضبط على النحو الذى كان يفعله فى الخطب الكثيرة التى ألقاها لغرض الدعاية ، وكان يفخر فيها بذكر مدافع الإسكندرية التى إذا ضربت وصلت إلى جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الاستانة إذا أطلقت بلغ مرماها هذه الجزيرة من الجانب الآخر ، فكيفما جاءت

الأساطيل الإنجليزية فهي تحت رحمة مدافعنا ١١
وانتهت الثورة العراقية بالفشل واعتقل من زعمائها من
اعتقل ، فهرب النديم واختفى عن أنظار الحكومة والجمهور ؛
ومكث مختفياً زهاء عشر سنين . . ثم أعلن الحديوي عباس حلي
الثاني العفو عن النديم سنة ١٨٩٢ فعاد إلى الظهور . ويومئذ
رجع إلى ميدان الصحافة حيث أصدر صحيفته الثالثة وهي :

جريدة الأستاذ :

والحق أن هذه الجريدة الأخيرة كادت تكون صورة من
الجريدة الأولى باسم (التبكيك والتسكيك) لولا ما امتازت به
الأستاذ من تنوع الأهداف التي تلخص فيما يلي :

- أولاً — الإصلاح الاجتماعي .
- ثانياً — إصلاح التربية والتعليم .
- ثالثاً — الدفاع عن الشرق ضد أوهم الغرب .
- رابعاً — مهاجمة الاحتلال البريطاني دفاعاً عن الحديوي
عباس حلي الثاني .
- خامساً — الحملة على المبشرين المسيحيين .

وذلك كله فضلاً عن عناية النديم باللغة العربية باعتبار أنها اللغة القومية ، والدعوة إلى احترام هذه المادة في جميع مناهج الدراسة ، والدعوة أيضاً إلى معاملة مدرسيها بسخاء لا يقل عما يتمتع به مدرسو المواد الأخرى في المدارس الحكومية . وبهذا الجزء الأخير من جهود النديم تأثر الزعيم الشاب مصطفى كامل ، فمضى هو الآخر يدافع عن أساتذة اللغة العربية بعد إذ مكر الاحتلال البريطاني بهم ، وجعل الفروق واسعة بينهم وبين مدرسي المواد الأخرى وخاصة مادة اللغة الإنجليزية .



وإلى جانب الصحف المتقدمة كانت هناك صحف أخرى تؤدي واجبها في الميدان . ومن أشهر هذه الصحف :

صحيفة الأهرام :

وقد مضت هذه الصحيفة في خطتها المعروفة — وهي خطة الاعتدال والتوسط دائماً بين المصريين والأجانب . لحينا تكتب في مناصرة الوطنيين . وحيناً تنقل آراء الإنجليز والفرنسيين فيما يتصل بالمشكلات المصرية المعروفة ورأيهم كذلك في الأحداث المصرية الجارية ، كعزل رياض من الوزارة ومجيء شريف مكانه .

غير أن الخطأ الذى ارتكبته الأهرام فى هذا الطور من أطوارها أنها بالغت فى ذكر مثالب الباب العالى ، وبالغت فى الوقت نفسه فى ذكر محاسن الأوروبيين وخاصة الفرنسيين . وزادت على هذا وذاك أنها وقفت موقفا يوشك أن يكون معاديا للثورة العراقية — فاخذت تنذر العراقيين بالويل والثبور وعواقب الأمور .

* * *

ولا نستطيع أن نترك صحافة هذا الطور دون أن نشير إلى صحافة جديدة من حيث النوع — وهى الصحافة الهزلية . وإمام هذه الصحافة إذ ذاك هو د يعقوب بن صنوع ، وكان من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى . وقد لمس بيده مظالم إسماعيل فعاش حياته يسخر من أعماله حتى اضطر إسماعيل إلى نفيه من مصر إلى فرنسا حيث عاش معظم حياته .

وقد سلك (يعقوب بن صنوع) فى سبيل السخرية إسماعيل وأوضاع الحياة المصرية فى زمانه طريقين هما : طريق الصحف ، وطريق المسرح . ونجح نجاحا عظيما فى كل منهما . أصدر هذا الفتى الإسرائيلى الأريب مجلة له سماها :

أبو نظارة زرقاء :

وصدر العدد الأول من أعداد هذه المجلة في ٢١ من ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هجرية . وبني سياسته في هذه المجلة على التقريب بين مصر وجميع الدول الأوروبية باستثناء إنجلترا ، كما بناها على تصوير الظلم الذي يعانيه المصريون في عهد إسماعيل . وكان يلجأ في ذلك إلى (فن المحاورات) التي يتسلل بها العامة ويعتبر بها الخاصة .

والذي يقطع بأن (ابن صنوع) إنما كان يقصد بمحاوراته هذه شخصا واحدا هو (إسماعيل) ما شاع في أيام هذا الخديوى من أنه كان إذا غضب على أحد من أصدقائه دعاه إلى قصر من قصوره وقدم إليه فنجانا من القهوة دس فيه السم . فلا يكاد ضيفه يصل إلى بيته حتى يخر صريعا ، وتخفى الأسرة مع هذا سبب موته .

شاعت هذه الأخبار في أيام إسماعيل . فأشار إليه (ابن صنوع) في بعض محاوراته حيث يقول :

أبو الشكر : يا مرحبا بك يا أبو نظارة .

أبو العينين : اتفضل اقعد يا عم وانجلي .

أبو خللاط : تويده تشرب إليه ؟

أبو الشكر : أبو نظارة قليل البيرة ؟

أبو العينين : لا — الراجل يحب القهوة !

أبو نظارة : لا يا خويا — القهوة ما احبهاش لأنها خطيرة
في الأيام دى . واللى يشرب منها فتنجان
واحد يُبرم !

أخذ أبو نظارة يهاجم فى مجلته هذه الأمراء والوزراء
والموظفين الأتراك والموظفين الأوروبيين . ذلك فضلا عن
مهاجمة الخديو وكان لا يذكر هذا الخديو بالشكر والثناء إلا فى
المواضع التى لا تستحق الشكر أو الثناء . وكان يشير إليه دائماً
فى محاوراته باسم « شيخ الحارة » . ويشير إلى الفلاح المصرى
باسم « أبى الغاب » . ويشير إلى نفسه باسم « أبى نظارة » تارة ،
واسم « الحسيب القريب » تارة أخرى .

ونفى ابن صنوع إلى باريس سنة ١٨٧٨ . وهناك أصدر
طائفة من الصحف الكثيرة هى فى الحقيقة أسماء لصحيفة
واحدة . ومن هذه الأسماء على سبيل المثال :

- ١ — أبو نظارة زرقا .
- ٢ — النظارات المصرية .
- ٣ — أبو صفارة .
- ٤ — الحاوى .
- ٥ — أبو زمارة وهكذا .



الطور الثالث
من أطوار الصحافة المصرية
”طور الكفاح ضد الاحتلال“

(من سنة ١٨٨٢ — إلى قيام الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩)

اللورد دوفرين لمصر النظام الجديد الذي يتفق
[وضع] ومصالح الاحتلال ، ونص في نهاية هذا النظام على
أن هناك أمرا لا بد منه لجعل هذه الأنظمة فعالة ومثمرة ، وهذا
الامر هو (الصحافة الحرة) ، وعقب المؤرخ الإنجليزي (يونج)
على هذا بقوله : إن مصر نالت بسبب ذلك حرية صحفية لم يعرفها
شمال إفريقيا ولا غرب آسيا ، وبسبب هذه اللغة من جانب اللورد
دوفرين هذا أهمل العمل بقانون المطبوعات لسنة ١٨٨١ .

ثم أتى اللورد كرومر لكي يعمل على تنفيذ هذه الأنظمة التي
وضعها سلفه في مصر ، فرأى أن يترك العنان للصحافة المصرية ،
دخلت تقاريره السنوية من الحديث عنها مدة كبيرة ، ثم تحدث
عنها فجأة في التقرير الذي كتبه سنة ١٩٠٣ وتضمن التقرير
كلمته المأثورة :

« إن الصحافة المصرية عاشت عشرين سنة منذ الاحتلال بدون
تاريخ ، فما مدى الصدق أو الكذب في هذه العبارة ؟
إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضينا النظر في الصحف التي أبقى
عليها الاحتلال ، والصحف التي حكم عليها بالتعطيل أو الإلغاء .

* * *

والواقع أننا حين ننظر في هذا الطور الثالث من أطوار الصحافة نرى أننا نستطيع أن نميز فيه فترات ثلاث :

(الأولى) وتقع بين سنتي ١٨٨٢ م ١٨٨٩ . وهي الفترة التي شهدت صحف : البرهان ، والاعتدال ، والسفير ، والمقياس ، والمقطم ، واستمرت في الظهور صحف الوطن ومرآة الشرق والأهرام .

(الثانية) وتقع بين سنتي ١٨٨٩ م ، ١٩١٤ . وهي الفترة التي شهدت أعظم الصحف الوطنية شأنًا ، وأجلها خطراً ، وأدناها على صحافة الرأي في مصر ، ومنها صحيفة (المؤيد) للسيد علي يوسف ، وصحيفة (اللواء) لمصطفى كامل وصحيفة (الجريدة) لمحررها أحمد لطفي السيد .

(الثالثة) - وتقع بين سنتي ١٩١٤ ، ١٩١٩ - وهي الفترة التي ركزت فيها الصحافة الوطنية ، وحيل بينها وبين العمل المجدي ، وذلك في أثناء الحرب العظمى .

الفترة الأولى

١٨٨٢ - ١٨٨٩

هذه الفترة أن تعطينا جزءاً من الإجابة عن السؤال
المتطوع المتقدم ، وهو ما مدى الصدق أو الكذب في عبارة
اللورد كرومر ؟ — تلك العبارة التي ذهب فيها إلى أن الصحافة
المصرية عاشت منذ الاحتلال عشرين سنة كاملة بدون تاريخ .

فنحن حين ننظر في هذه الفترة نراها تقترن بعدد من الصحف
الشعبية التي وجدت قبل الاحتلال ، ثم ما كادت تفيق من غشيتها
حتى شرعت تستأنف النضال ، وتعرض في أثناء ذلك للتعطيل حيناً
والإلغاء حيناً آخر . ولا يتفق ذلك مطلقاً مع رأى اللورد
كرومر في أن الصحافة المصرية وقفت ساكنة لا حراك بها بحيث
أصبح اللورد لا يخشى سلطانها ، ولا يخاف على نفسه وعلى
الاحتلال منها .

لقد بدأ الاحتلال حياته في مصر بأن عمل على إلغاء الصحف
الآتية : وهي صحف « الزمان » ، والسفير و « مرآة الشرق » ، والصادق
والفلاح ، وعبارة أخرى جميع الصحف التي كان ينفق عليها مختار
باشا الغازي سفير تركيا في مصر ، وأكثر الصحف التي تعتمد

في بعض مواردنا علي القنصلية الفرنسية .
ولا غرابة في ذلك فقد جاء الاحتلال مهددا لمصالح هذه
الجهات الثلاث وهي :

جهة الوطنية المصرية التي أصيبت في الصميم .
وجهة السيادة العثمانية التي لم يمد لكرامتها وهيئتها الأولى
وجود .

وجهة المصالح الفرنسية التي أطاح بها السلطان الإنجليزي
في مصر .

وأكثر من هذا وذاك أن أوامر التعطيل والإلغاء كانت
تسحب أحيانا على بعض الصحف الشعبية التي أخذت بجانب
الاحتلال ، ومن هذه الصحف على سبيل المثال (صحيفة الوطن) ،
فقد استقبلت الحكومة المصرية الجديدة والاحتلال البريطاني ،
أحسن استقبال ، وحملت على عرابي ورمته بتهمة التعصب الديني ،
وتجنبت عليه وعلى المصريين في هذا السبيل .

وبحسبنا بعد هذا كله أن نقف وقفة ما عند :

صحيفة الأهرام :

وقد عادت هذه الصحيفة إلى الظهور في الحادي عشر من شهر
أغسطس سنة ١٨٨٣ ، وهي وإن بدأت في تلك الفترة تحمل على

(العاصي عرابي) وتمسح (الخليوي) وأنصار الخديو ، بجمالة في كل ذلك الاحتلال البريطاني ، فإنها . . . أي الأهرام — أذهلت الرأي العام حين رآها المصريون في سنة ١٨٨٤ م تنتقل على حين غرة في سياستها من الضد إلى الضد ، فترك المجاملات التي كانت تبذلها للحكومة والإنجليز بشجاعة ، وتأخذ جانب الشعب المصري نفسه ، وذلك في جميع القضايا التي كانت تشغل قلبه ، ومن أهمها يومئذ : (قضية السودان) . وقفت الأهرام تنقد الإنجليز الذين نصحوا المصريين بترك السودان ، وكان معنى ذلك بطبيعة الحال انفراد الاحتلال البريطاني بحكم تلك البلاد ، وهو ما لم ترض عنه صحيفة الأهرام ، ولا رضيت عنه حكومة شريف الذي قال كلمته المشهورة : « إننا إذا تركنا السودان فإن السودان لن يتركنا » . ومن أجل هذا وجدنا بشارة تقلايثنى ثناء مستطابا على شريف ، ومن أجل هذا وجدت الصحافة الوطنية تشيد بموقف الأهرام ، وتصفها بأنها ذات سياسة عثمانية مصرية ، تدافع فيها عن المصالح الفرنسية ، ولكنها لا تهمل الدفاع عن مصلحة مصر قيد أنملة .

ثم ما إن ظهر في ميدان الجهاد شاب عظيم الشأن ، هو مصطفى كامل ، وجاهر بالعداء ضد الاحتلال ، وطالب الإنجليز بالجلاد

حتى رأينا الأهرام تفسح له من صدرها ، وتقف وراءه مؤيدة ومناصرة .

وهكذا توشك جريدة الأهرام في تلك الفترة من حياتنا السياسية أن تنفرد بحمل لواء الجهاد ، وكان ذلك يغيظ الحكومة المصرية فكانت تأمر بتعطيل الأهرام ، فيحتج لذلك القنصل الفرنسي ، فتفرج الحكومة عن هذه الصحيفة .

نعم فما لاشك فيه أن الأهرام كانت تميل إلى فرنسا ، وكانت في رأيها هذا شبيهة بمصطفى كامل الذي كان هو الآخر يعول تعويلا كبيرا على فرنسا . وبقي الحال على ذلك إلى أن حدث الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا ، وهو الاتفاق الذي أطلق أيدي الإنجليز في مصر في مقابل أن يسمحوا بإطلاق أيدي الفرنسيين في الجزائر .

ولإذ ذاك كان على كل من مصطفى كامل والأهرام أن يعدلا نهائيا عن تلك السياسة .

والخلاصة أن ميول الأهرام نحو فرنسا في فترة ما لا يمكن أن يغض من هذه الحقيقة التي أشرنا إليها ؛ وهي أن هذه الصحيفة هي التي وقفت وحدها في الميدان حتى ظهرت فيه عدة صحف وطنية من أخطرها صحيفة « المؤيد » للسيد علي يوسف .

ولكن هذه الصحيفة الأخيرة سبقتها إلى الظهور صحيفة شعبية أخرى لا نستطيع أن نهماها وهي :

صحيفة المقطم :

وهي الصحيفة التي اعتمد عليها الاحتلال البريطاني . فأمدتها اللورد كرومر بالمال ، وبالأخبار وبالإعلان ، وبكافة المواد الصحفية التي تكفل لها الرواج ، وحين ظهرت « المؤيد » بعدها بعام واحد لقيت — على عكس ذلك — من صنوف الإيذاء والاضطهاد والحرمان ما شهد لصاحبها بالبطولة والمهارة ، فقد كان « كرومر » يؤثر صحيفة المقطم بالأخبار الحكومية في الوقت الذي كان يحرم فيه « المؤيد » من هذه الأخبار الحكومية لتقل بذلك قيمتها الإخبارية في نظر الجمهور .

ومع هذا وذاك فسرى كيف صبر السيد علي يوسف واحتال للوصول إلى الأخبار الهامة ، وأذهل بذلك الاحتلال البريطاني ، وحمل عميده اللورد كرومر على مبارزة هذا الصحفي الأعزل من كل شيء ، ثم شاءت الأقدار أن ينتصر السيد علي يوسف ويتهم جبار الاحتلال البريطاني في قضية هامة سنشير إليها بعد قليل هي قضية التلغرافات .

قام أصحاب المقتطف — بإيعاز من المعتمد البريطاني — بإنشاء صحيفة «المقطم» ، وصدر العدد الأول منها في الثامن عشر من شهر أبريل سنة ١٨٨٨ م وقالت إنها «صحيفة يومية سياسية تجارية هدفها خدمة المصالح الوطنية» ، ثم جاء مسلك هذه الصحيفة مكذبا كل التكذيب لهذا العنوان العريض . وسرعان ما أدرك الرأي العام في مصر كل ذلك ، وفهم أنها صحيفة إنجليزية ، وكل أعمال الحكومة ممدوحة لديها ، ثم جاء تصرف المحتلين مطابقا لهذه الدعوى .

فإذا فكرت الحكومة المصرية في تعطيل «المقطم» ، لأنها تهاجم الخديو تصدى المعتمد البريطاني لحمايتها ، وحال دون تنفيذ الحكم عليها . وأكثر من هذا وذاك أنه يثبت بالدليل القاطع أن كلا من نظارتى الداخلية والخارجية كانت تخص «المقطم» كل عام بمنحة مالية ؛ تشجيعا لها على الدفاع عن المصالح البريطانية .

وازداد عداؤ الشعب المصرى «للمقطم» ؛ حتى ترجم هذا العداؤ إلى مظاهرات شعبية هاجمت الصحيفة وقذقتها بالحجارة ، ومع هذا وذاك فقد صمدت الصحيفة في الميدان تساندها

الحكومة من جانب ، والاحتلال من الجانب الآخر ، حتى
ضاقت الأمة المصرية ذرعاً بها ، وفكر بعض الوطنيين في إنشاء
صحيفة مناهضة لها ، وهي صحيفة المؤيد . وهنا تبدأ فترة أخرى
من فترات هذا الطور الثالث من أطوار الصحافة المصرية سنفردها
بالكلام فيما يلي :



الفترة الثانية

١٨٨٩-١٩١٤

وفيها ظهرت صحف كثيرة من أهمها :

- صحيفة المؤيد للسيد على يوسف سنة ١٨٨٩ .
 - صحيفة الأستاذ للسيد عبد الله النديم سنة ١٨٩٢ .
 - صحيفة المنار للسيد رشيد رضا سنة ١٨٩٨ .
 - صحيفة اللواء لمصطفى كامل سنة ١٩٠٠ .
 - صحيفة (الجريدة) لمحررها أحمد لطفى السيد سنة ١٩٠٧ .
 - صحيفة العلم وهي لسان الحزب الوطنى . سنة ١٩١٠ .
 - صحيفة الشعب وهي لسان الحزب الوطنى كذلك سنة ١٩١٣ .
- وهذا كله عدا صحيفتى الأهرام ، والوطن وغيرهما .

صحيفة المؤيد :

وصاحب هذه الصحيفة كما قلنا هو السيد على يوسف ، كان شابا أزهرى النشأة ، ثم بدا له أن يفر من الأزهر إلى الحياة العامة . وإذ ذاك اختار لنفسه مهنة الصحافة .

يقول الأستاذ تشارلز آدمز فى كتابه (الإسلام والتجديد)

عن صاحب المؤيد .

« كان السيد علي يوسف صحتياً مأمراً ، وله دهاء ومكر أحياناً ،
ولقد رفع المؤيد إلى مكان الصدارة في العالم العربي ، فاحاط
الخديو عباس هذه الصحيفة برعايته ، وشملها بنهايته وأصبح
الشيخ علي يوسف يسير في ركاب الخديو حيث سار ، وأخاص
له إخلاصاً يفوق إخلاص مصطفى كامل لهذا الجالس على العرش .
وقد وجه السيد علي يوسف سياسة المؤيد وجهة خاصة ، فجعله
يوماً للدعوة إلى رأى المحافظ ، وكان في نظر خصومه - على الأقل -
يهيج كوامن التعصب الديني .

ويقول الخديو عباس في مذكراته :

« كنت أود أن يكون لي صحيفة قادرة على أن تثير الشعب
المصري وتقوده شيئاً فشيئاً إلى إدراك أكثر وضوحاً لكلمة الوطن
وواجبات المواطن ، فدعوت كاتباً من كتاب اللغة العربية كنت
قد سمعت عن صفاته ومزاياه - هو الشيخ علي يوسف ، وكان
خارجاً من الجامعة الأزهرية ، وكان قد لفت إليه الأنظار - إن
لم يكن باتساع أفقه الفكري ، فبحاسته في المناقشة ، وبموهبة
الحقيقية في الجدل . وبقدرته المعروفة في هضم المسائل ، وخاصة
إذا ذكرنا أنه لم يكن يتكلم إلا العربية ، ولم يدرس
إلا في الجوامع ، .

ولقد عرفت مصر كاتباً آخر شبيهاً في نشأته بالسيد علي يوسف ، ومتحيزاً مثله لجانب الوالى الشرعى للبلاد أيا كان ، وهذا الكاتب الذى تقصد إليه هو الشيخ حمزة فتح الله محرر جريدة « البرهان » ثم جريدة « الاعتدال » . ولكن الفرق عظيم جداً بين هذين الكاتبين :

أما أحدهما - وهو السيد علي يوسف - فكان كما ذكرنا رجلاً ذا دهاء ومكر وسعة حيلة أعانتته على أن يكون صحفى مصر السياسى فى أدق فترة من فترات حياتها - وهى فترة الاحتلال البريطانى ، أو بعبارة أدق - كان رجلاً نصفه للأمير ، ونصفه للجماهير ، ومع ذلك لم يحاول أن يميل بصحيفته إلى جهة منهما على حساب الثانية .

وأما الآخر - وهو الشيخ حمزة فتح الله - فكان رجلاً رجعياً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، اشترك فى تحرير « البرهان » التى صدرت بالاسكندرية سنة ١٨٨١ م ، فجعل منها صحيفة للسراى ، وراح يزهو بهذه النسبة ، ويملا صفحات جريدته بالحمد والثناء على الخديو ، حتى وصفه بأنه (آية من آيات الدهر ، إذا رأيت ألقىته فى محياه ما يجذب الأفواه للتسليح .

لا سيما إذا تفرق ماء البشر في غرته ، وتفتق نور المجد من أسرته (الخ .

وتتحمس الصحف كلها للشورى ، وتؤيدها بكل ما تملك من قوة ، ويأبى الشيخ حمزة فتح الله إلا أن يتفرد برأى فى الشورى يتملق به أولى الأمر وذلك حيث يقول :

فأما الشورى - وإن كانت ممدوحة عقلا وشرعا بما ورد فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة فى غير موضع ، إلا أن ذلك ليس على معنى أنها واجبة حتما على أولى الأمر ؛ بحيث لا تمضى بدونها بيعتهم ، ولا تنفذ أحكامهم ، لأن هذا مالا يقول به أحد . :

فأين هذا كله من دفاع السيد على يوسف عن نظام الشورى فى البلاد ، ومن بلائه الحسن فى مكافحة الاحتلال وما جره عليها من فساد ؟؟ وأين هذا كله من دفاع شاب كأديب أسحق عن الحرية وعن الكرامة المصرية ؟ ثم أين هذا كله من مواقف النديم المشهورة فى صحيفة الأستاذ ! وكلها ذود عن الحرية ونظام الشورى ؟

الحق - لقد كان الشيخ حمزة فتح الله رجلا بعيدا عن العصر الذى عاش فيه ، ولم يكن كالنديم وغيره من الصحفيين النابيين قطعة من ذلك العصر ، وصورة مما جرى لأهله .

منذ فكر السيد على يوسف فى إنشاء « المؤيد » وهو يصادف
طائفة من المصاعب كانت كل واحدة منها كفيلة بإسقاطه لولا
صفات خاصة فى الرجل - هى تلك الصفات التى أشاد بها الأستاذ
« تشارلز آدمز » .

ومن تلك الصعوبات صعوبة آتته من « قلم المطبوعات » ،
وكان على رأسه إذ ذاك موظف إنجليزى ، ومن ثم كانت للمؤيد
قضايا مشهورة فى تاريخ الصحافة من أهمها :

قضية التلغرافات :

فى شهر مايو سنة ١٨٩٦ أصدرت نظارة الحرية أمرا
بعدم إعطاء المؤيد أية معلومات عن الحملة المصرية على دنقلة ،
فوقع السيد على يوسف فى حيرة شديدة : أ يضرب صفحا عن
أنباء هذه الحملة مع أن أنباءها تهم الشعب ، وجنود الحملة هم أبناء
هذا الشعب ؟ أم يفعل هذا الرجل كل ما يستطيع حتى يصل
إلى ما يريد ؟ .

وفى ٢٦ من شهر يولية سنة ١٨٩٦ - والساعة الثانية بعد
الظهر - أخذ موظفو مكتب تلغراف الأزبكية يتلقون إشارة
برقية من السردار بالسودان إلى ناظر الحرية بالقاهرة انتهوا

منها في العاشرة والنصف مساءً ، وفي هذا التلغراف يعتذر السردار عن تأخيره في الاتصال بالقاهرة بسبب الكوليرا التي تفشت في الجيش ، وكان لها إصابات كثيرة .

ثم في يوم ٢٨ من يولية فوجيء ناظر الحرية بنشر هذا التلغراف برمته في صحيفة المؤيد ، فهاج لذلك وهاجت معه السلطات الإنجليزية ١

وتوالى على مكتب التلغراف بالأزبكية برقيات من هذا النوع ينشرها المؤيد كاملة في اليوم التالى . إذ ذاك فكر اللورد كرومر في حيلة يسوق بها السيد على يوسف إلى المحاكمة ، وذكر كرومر أن القانون العام يعاقب الموظف الذى يعمل على إفشاء أسرار الحكومة ، وعلى هذا ففى وسع كرومر أن يقدم الموظف المسئول فى مكتب التلغراف بالأزبكية إلى المحاكمة بهذه التهمة ، وفى وسعه كذلك أن يقدم معه السيد على يوسف بتهمة الاشتراك فى هذه الجريمة .

وسئل السيد على يوسف فى المحكمة عن المصدر الذى اعتمد عليه فى هذه البرقيات ؟ فأجاب بأن سر المهنة يحول دون تصريحه بشيء من ذلك ؛ لذلك عجزت النيابة عن أن تلفق له تهمة يعاقب عليها .

ثم في يوم النطق بالحكم احتشدت الجماهير في ساحة المحكمة حتى لم يكن فيها موضع لقدم واحدة ، وتوافد الناس من الأقاليم ليشهدوا بأنفسهم ذلك اليوم ، حتى لقد ضاقت بهم فنادق القاهرة . ثم في يوم ١٨ من شهر نوفمبر صدر الحكم براءة السيد على يوسف فهتفت له الجموع ، و صفقت له وهلات ، وأقبل بعضهم يهنيء بعضا بهذا الحكم ، ثم انثألوا على صاحب المؤيد فملأوه على الأعناق وخرجوا به من ساحة المحكمة ، وكان يوماً مشهودا في تاريخ الشعب المصري ، أنتصر فيه انتصارا باهرا على اللورد كرومر .

وحسبنا ذلك لننتقل إلى الكلام عن صحيفة أخرى هي :

صحيفة اللواء :

ولهذه الصحيفة في الحقيقة من اسمها نصيب كبير ، فهي التي حملت لواء الحركة الوطنية ، وبقيت تحمل هذا اللواء حتى بعد وفاة صاحبها الزعيم الشاب مصطفى كامل ، ولقد صدر العدد الأول من هذه الصحيفة يوم الثلاثاء غرة رمضان سنة ١٣١٧ وهو الموافق لليوم الثاني من شهر يناير سنة ١٩٠٠ ، وقد رسمت الصحيفة لنفسها إذ ذاك برنامجا يتألف مما يلي :

أولاً — الدفاع عن فكرة الجامعة الإسلامية باعتبارها الطريق
الوحيد في نظرها للتخلص من الاحتلال البريطاني .
ثانياً — تنشيط الحركة الوطنية بكل الوسائل والنزوح
لها بكل الطرق .

ثالثاً — تربية الأمة المصرية تربية سياسية بحيث تصبح
في أقرب وقت ممكن أهلاً للاستقلال والحرية .
رابعاً — توجيه الرأي العام المصرى أحسن توجيه وأكمله
في ميدان الإصلاح الاجتماعى .

خامساً — الدفاع عن الدين الإسلامى ضد هجمات الاستعمار
الأوربى .

وفى سبيل الهدف الأول من هذه الأهداف انطلقت الصحيفة
تؤلف بين المصريين والأتراك باعتبار أن دولتهم د هى التى تحمى
المسلمين ، وتحفظ البلاد المقدسة الطاهرة من أعداء الدين ، ولأنها
زعيمة العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر بدون منازع ،
وفى سبيل الهدف الثانى — وهو الحركة الوطنية — انبرت
اللواء تدافع عن المصريين فى كل موقعة من المواقع التى اصطدموا
فيها بالاحتلال البريطانى ، وكان لهذه الصحيفة قبل هذا كله أكبر
الفضل فى أنها خلصت المصريين من اليأس الذى ملأ نفوسهم

وران على قلوبهم بازدياد النفوذ البريطاني — ولا سيما بعد حادث
فاشودة ، واتفاق السودان ، فإذا المصريون بتأثير هذه الصحيفة
يدب الأمل في قلوبهم ، وينقادون للحركة التي قام بها زعيمهم
الشاب مصطفى كامل .

وقد كان لهذا الزعيم طرق كثيرة في بعث الروح الوطني
في المواطنين ، ومنها على سبيل التمثيل :

أولاً — تحرير المقالات في اللواء — يسرد فيها تاريخ
الأمم الحية ، ويشيد بمواقفها في ميدان الكفاح من أجل الحرية .
ثانياً — تحرير المقالات كذلك في سير العلماء والعظماء
الذين اشتركوا في بناء الأمة المصرية ، وكان لهم فضل لا نكران
له في تقدمها .

ثالثاً — تحرير المقالات في سبيل الدعوة إلى تأسيس المدارس
على نفقة الشعب المصري ، وعدم الاعتماد في شيء من ذلك على
الحكومة . وكان هو من أول الذين قاموا بتنفيذ هذه الفكرة
بل كان هو أول داع في الحقيقة لإنشاء الجامعة المصرية .

رابعاً — العناية بتسجيل الحوادث الوطنية في صحيفة اللواء
والكتابة من حين لآخر في ذكرى هذه الحوادث . وكان
من أكبرها حينذاك :

مهارة ونسوة :

وهى المأساة المشثومة على الاحتلال البريطانى ، لآها انتهت بسقوط اللورد كرومر عن كرسى العمادة فى مصر . وإذ ذاك تم لصاحب اللواء أكبر ما كان يتمناه لنفسه ولبلاده من نصر . ويومها كذلك نشر هذا الرجل مقاله المشهور بعنوان :

إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن

بتاريخ ١٨ من يولية سنة ١٩٠٦

وفىها سرد الكاتب هذه القصة . ثم قال :

« ولكن — ما عرفها أصحاب الأمر من الإنجليز فى مصر حتى فقدوا رشدهم ، وثاروا لقيام المصريين بالدفاع عن أنفسهم وعن أملاكهم ، وبدلاً من أن يقابلوا الحادثة بسكون ورباطة جأش ، وينظروا إليها كما ينظرون إلى غيرها من المعارك والمشاجرات التى من هذا النوع ، بالغوا فيها ، وجسموها ، وأعلنت الصحف الموالية للاحتلال قبل المحاكمة أن العقوبات والعبرة التى ستضرب للناس ستكون هائلة . فلم تكن العدالة إذن هى المنشودة من المحاكمة بل كان المنشود هو الانتقام ، إلى آخر ما جاء فى هذا المقال .

الجريدة :

وإذا كانت صحيفة المؤيد هي لسان حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وكانت اللواء لسان الحزب الوطنى الذى يرأسه مصطفى كامل ، فإن الجريدة هي لسان حزب الأمة الذى هو أول الأحزاب المصرية ظهوراً فى الحقيقة ، ثم تلاه حزب الإصلاح ، وأخيراً ظهر الحزب الوطنى . وحدث هذا كله بين عامى ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ .

ومعنى ذلك أن الأحزاب المصرية الهامة ولدت فى أحضان الصحافة ، وذلك ظاهرة تستحق التسجيل ، وفيها الدليل الذى ليس بعده دليل على خطورة الصحافة المصرية فى تلك الفترة .

وقيل فى السبب الذى من أجله ظهرت « الجريدة » ، أن حادثاً وقع إذ ذاك وكان له تأثير كبير فى نفوس المصريين وعقولهم — وهو حادث « العقبة » ، وخلاصته أن الحكومتين التركية والمصرية اختلفتا على « العقبة » ؛ كل تدعيها لنفسها دون الأخرى ، وتدخلت إنجلترا بينهما ، فانتصرت لمصر على تركيا . ولكن الصحافة المصرية تنهت لهذا الوضع ، ولم تجز عليها الخدعة الإنجليزية فى ذلك الوقت ، ونصرت الأتراك على الإنجليز

في هذه المشكلة ، فذهل الاحتلاليون لهذا الموقف ، وعاد الوطنيون في مصر يفكرون في الأمر ، فكان من رأى لطفي السيد أن تنشأ جريدة مصرية تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص لتركيا أو إلى إحدى السلطتين الشرعية والفعالية في البلاد (يريد بالسلطة الشرعية الخديو عباس وبالسلطة الفعلية لورد كرومر) ، ورأى الأستاذ لطفي السيد أن تكون الجريدة ملكا لشركة من أعيان البلاد أو أصحاب المصالح الحقيقية فيها وهم الذين ظن اللورد كرومر أنهم راضون عن الاحتلال، متوهما أن حركة المعارضة لهذا الاحتلال لا يقوم بها إلا من ليس لهم مصالح حقيقية في البلاد ، وهم طبقة الأفندية من جانب وباشوات الأتراك من جانب آخر . أما الأهداف التي سعت إليها (الجريدة) فتتلخص فيما يلي :

أولا — نشر عقيدة الاستقلال بين أفراد الأمة المصرية ودحض الفكرة القائلة بأن مصر يمكن أن تحصل على استقلالها بمساعدة فرنسا وتركيا ، مع أنه لا سبيل في الواقع إلى حرية المصريين إلا بمجهود المصريين .

ثانياً — السعي لإزالة الفروق في الرأي بين المصريين وإحلال التشابه في العقيدة محل الخلاف فيها — وبعبارة أخرى —

تكوين ما يسمى بالرأى العام المصرى من جديد ، وبذلك يتحد المصريون فى أهدافهم مهما كانت آراؤهم .

ثالثاً — إتماء الشخصية المصرية بقدر المستطاع ، والنظر فى الأمور السياسية من زاوية مصر وحدها مستقلة عن غيرها من الدول ومنها الدولة العثمانية نفسها .

رابعاً — توجيه النقد إلى السلطتين الشرعية والفعالية فى البلاد، والنظر فى هذا النقد إلى مصلحة المصريين وحدهم ، من غير تحيز لأحد الجانبين المذكورين فى حال اختلافهما ، أو فى حال اتفاقهما ، أو فى الحال التى يكونان عليها بين بين .

خامساً — المطالبة بالدستور، والدأب على هذه المطالبة بعد إذ تبين للمصريين أنه يستحيل عليهم التقدم خطوة إلى الإمام إلا بمشاركة الأمة للحكومة فى الأعمال العامة ، ولن يكون ذلك إلا بحصول الأمة على الدستور ولو بالتدريج ، وذلك عن طريق الدفاع عن مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين ، وتوسيع اختصاصهما تمهيداً للوصول إلى حياة نيابية أقرب للكمال .

سادساً — الرد على مزاعم الإنجليز، وبخاصة ما جاء منها مخالفاً تقارير اللورد كرومر والدن غورست ، حتى يثبت للعالم الحر أن مصر خليفة بالكمال الذى تنشده، وأن الإنجليز ظالمون فى

نظرتهم للدين الإسلامى من جهة ، وظالمون فى تقديرهم للدووظف المصرى والكفاية المصرية من جهة أخرى .

سابعاً — الدعوة لمذهب الحريين ؛ ليكون أساساً لتربية الأمة المصرية ، ولحرية التعليم ولحرية القضاء ، ولحرية الكلام والكتابة ، ولحرية الاجتماع ، وسائر أنواع الحريات الأخرى ، مع العناية التامة بهراج التعليم حتى يصبح ملائماً لأغراض الأمة والجيل الجديد .

ثامناً — النهوض بالحركتين العقلية والأدبية ، وإفساح المجال للشبيبة المصرية لكي تظهر مواهبها المختلفة .

تاسعاً — العمل على تشجيع الصناعة والتجارة والزراعة حتى تبلغ كل منها الحد الذى يتفق وآمال البلاد .

عاشراً — العمل على تقوية الوحدة القومية مع اليقظة التامة لتوحيد عنصرى الأمة المصرية — وهما عنصر المسلمين وعنصر الأقباط — حتى لا يجد المحتل ثغرة ينفذ منها إلى تحطيم الوحدة أو النيل من الحركة الوطنية .

وباختصار كانت (الجريدة) ومحررها أحمد لطفى السيد ، تشترك مع (اللواء) ومحرره مصطفى كامل فى الأهداف الوطنية . ولكنهما يختلفان اختلافاً كبيراً فى الوسائل : فبينما مصطفى

كامل يرى الاعتماد على الدولة العلية ، إذ بلطفي السيد لا يرى الاعتماد على هذه الدولة أو غيرها ، بل على المصريين وحدهم دون غيرهم . وبينما دعا مصطفى في (اللواء) إلى ما يسمى (بالجامعة الإسلامية أو الجامعة العثمانية) ، إذا بلطفي السيد في (الجريدة) دعا إلى (الجامعة المصرية) أو (الجامعة القومية) . وقال في ذلك :

« إن علينا نحن المصريين أن نترك فرنسا وإنجلترا والدولة العلية . وعلينا ألا نغير سياسة الخلاف ، أو سياسة الوفاق أية أهمية ، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط في الحصول على حقنا في الدستور ، وحقنا في الحرية . لا بد لنا من ذلك ، ومن عزة تربأ بنا أن نطلب من غيرنا أن يأتي لتحرير أنفسنا من الرق وقلوبنا من عبادة القوى ، كأتنا — كما ظنوا خطأ بنا — ينبغي أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام . »

* * *

مهما يكن من شيء فقد ضاق الاحتلال بصحف الحزب الوطني أكثر مما ضاق بصحف الأحزاب الأخرى ، وكانت صحف الحزب الوطني معروفة بالتطرف في اللهجة ، فتوالت إنذارات الحكومة لصحيفة اللواء ، وكان لابد من تعطيلها

أو القضاء عليها بأية وسيلة ، فلم يجد الحزب الوطنى بدا من أن يصدر اللاواء بأسماء جديدة . فتأزرة يصدرها باسم « العلم » بفتح اللام ، وقد تم له ذلك سنة ١٩١٠ . وأخرى باسم « الاعتدال المصرى » ونحو ذلك .

غير أن هذه الصحف كلها ألغيت تباعا بأمر الحكومة ، ولم يبق للحزب الوطنى فى النهاية غير صحيفة واحدة باسم :

صحيفة الشعب :

وقد صدرت هذه الصحيفة سنة ١٩١٣ ، وهى السنة التى شهدت فى تاريخ مصر حدثا من الأحداث الهامة فى المجال الدستورى . وخلاصته أن الحديو عباس حلى الثانى — بضغظ من الوطنيين وأصحاب الصحف وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية — أصدر ما يسمى (بالقانون النظامى) . وبمقتضاه ألغى المجلسين السابقين ؛ ليحل محلهما مجلس جديد باسم « الجمعية التشريعية » .

غير أن هذه الجمعية التشريعية لم تحقق رغبات البلاد ، بل ظهر أنها لعبة جديدة من تلك التى كان يلعب بها الاحتلال . وبحسبنا أن نعرف أن هذه الجمعية التشريعية لم يكن من حقها محاسبة الوزراء .

إذ ذاك انبرى (أمين الرافعى) لمحاسبة الجمعية من جهة ، ومحاسبة الحكومة والاحتلال من جهة أخرى على هذا النظام ، وشرع يكتب المقالات الطوال فى هذا المعنى ، وفى بعضها يقول : « نعم — إن القانون النظامى الجديد عدل نظام الانتخابات ، ومنح الجمعية التشريعية حق التشريع فى مسائل محصورة ، ولكنه فيما عدا ذلك وقف بالهيئة الجديدة حيث كانت الهيئات القديمة ، بل رجع بها إلى الوراء ؛ بأن حرم عليها الخوض فى مسائل لم تكن محرمة عليها قبل ذلك ، وخول الحكومة حق حل هذه الهيئة إذا لم توافق على القانون المعروض عليها للمرة الثالثة ، » .

وفى أخرى من مقالات الرافعى وجدناه يقول : « أعطونا حق إسقاط الوزارة ، وخذوا لأنفسكم حق حل الجمعية التشريعية ، » .

وفكرت الجمعية التشريعية فى وضع لائحة داخلية للأعضاء ، فالت الحكومة المصرية — بوحى من الاحتلال — بينها وبين ما أرادت ، فثار (أمين الرافعى) لذلك وأخذ يقول :

« لقد دهشت الصحافة الأفرنجية المحلية من ذلك ، ومن منع الأعضاء من حق الكلام فى أول جلسة ، بل اتقدت بشدة

موقف الرئيس عند ما طلب سجد باشا زغلول الكلام لتهنئته
بالرياسة ، وانتقدت دعوة الرئيس لسعد زغلول أن يكون
الكلام مقصوراً على الشكر ، وتساءلت إحدى هذه الصحف
عن أعضاء الجمعية : هل هم في مدرسة يقول ناظرها — والمقرعة
في يده — أيها التليذ سعد زغلول : قل الثلاثة الأسطر التي
حفظتها واجلس في الحال ؟

وأعلنت الحرب العظمى بعد ذلك في أغسطس سنة ١٩١٤ ،
فضت « الشعب » في صدورهما إلى السابع عشر من ذلك الشهر ،
ثم اضطرت الحكومة المصرية - بإشارة من السلطة العسكرية -
إلى إصدار طائفة من القوانين الاستثنائية . ومنها قانون منع
التجمهر في ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٤ ، ثم إعلان الأحكام
العرفية وفرض الرقابة على الصحف في الثاني من نوفمبر ، من
نفس السنة ، ثم إعلان الحماية البريطانية نفسها في الثامن عشر
من شهر ديسمبر في نفس السنة كذلك .

وأصدرت الحكومة المصرية أمرها لجميع الصحف بنشر
إعلان الحماية في صفحاتها الأولى ، فكبر على نفس أمين الرافعي
أن يطلع صحيفة « الشعب » بهذا العار ، وصمم على وقف
الصحيفة عن الإصدار ؛ فذلك أكرم له وللشعب المصري نفسه .

من أن تطبع صحيفة من صحفه وثيقة الإعدام والانكسار ،
وبالفعل تم له ذلك فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩١٤ .

فذلك إذن هو العصر الذهبى للصحافة المصرية ، بل تلك هى
الفترة التى أطلق عليها المؤرخون اسم : « الطور الصحافى من
أطوار الحركة الوطنية » . والمؤرخون على حق فى هذه التسمية ؛
لأن صحافتنا قامت إذ ذاك بكل ما عليها من واجبات ، وتحملت
فى سبيله من التضحيات ما جعلها ترقى إلى مرتبة أعلى الصحف
فى زمانها وفى بلاد غير بلادها .

فهل بعد هذا كله يحق لرجل كاللورد كرومر أن يقول
فى تقريره عن سنة ١٩١٣ « إن الصحافة المصرية عاشت منذ
الاحتلال البريطانى عشرين عاما بدون اريخ ، ؟
أظن أن الواقع يكذبه بطريقة سافرة ، وأن التاريخ نفسه
يجبر قومه الآن على تمزيق التقرير الذى تضمن عبارة كذلك
العبارة السابقة ١١

الفترة الثالثة

١٩١٤ - ١٩١٩

وهي فترة الركود ، بالنسبة للصحافة المصرية ، وذلك بسبب قيام الحرب العظمى ، واستحالة العمل الصحفي على وجه من الوجوه في ظل الأحكام العرفية . وفي تلك الفترة توقفت معظم الصحف عن الصدور ، وبقيت كذلك حتى نشبت الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ ، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها في السنة السابقة لها ، وكان الاحتلال البريطاني فوق هذا وذاك قد عطل الجمعية التشريعية هي الأخرى . وذلك في الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩١٤ .

وفوق هذا وذاك ، فقد ارتفعت أسعار الورق ارتفاعا فاحشا ، وانخفض توزيع الصحف القليلة التي استمرت في الظهور إلى درجة كبيرة ، وأصبح أكثرها يصدر على نصف فرخ من الورق فقط . وكانت هذه الأسباب كلها مدعاة إلى اختفاء أكثر الصحف ، — فلم يكن يظهر منها — فيما نعلم إلا صحيفة واحدة هي :

صحيفة السفور :

وهي صحيفة أدبية اجتماعية نقدية تصدر مرة في كل أسبوع ،

وقد ظهر العدد الأول منها يوم الجمعة ٢١ من شهر يولييه سنة ١٩١٥ بمدينة القاهرة ، وصاحبها هو عبد الحميد حمدي ، ومن كتابها يومئذ محمد حسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمي ، وأحمد أمين .

والحقيقة أن (السفور) كانت امتدادا (للجريدة) التي كان يحررها أحمد لطفي السيد ، وكان معه في تحريرها طائفة من الشباب المثقف من عز عليهم أن ينقطع نشاطهم الفكري بسبب الحرب ، وبسبب اختفاء (الجريدة) عام ١٩١٥ ، فاتفقوا على إصدار هذه الصحيفة الجديدة ، واتفقوا على ألا يخوضوا فيها — على أية حال — في السياسة .

وفي صحيفة السفور أتم أولئك الشبان المثقفون من تلاميذ الأستاذ أحمد لطفي السيد رسالة التجديد التي بدأوها من قبل في « الجريدة » ، واكتفوا بهذا القدر من النشاط حتى قامت الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ .

الطور الرابع
من أطوار الصحافة المصرية
"طور استكمال الحرية والدستور"
(من سنة ١٩١٩ — إلى سنة ١٩٢٨)

مقدمة

الاحتلال البريطاني الذي فرض نفسه على البلاد منذ .. في عام ١٨٨٢ للميلاد ، والمصريون يقاسون ألوانا من العسف والظلم ، ومن الضغط والذل ربما تنوء بها الشعوب الأخرى ، فلقد أطاح الاحتلال باستقلالهم الداخلي الذي أقرته معاهدة سنة ١٨٤٠ ، كما أطاح الاحتلال بدستورهم الذي نالوه على يد الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ . ومنذ ذلك الوقت ولمصر قضية كبرى ذات شقين : أولها الاستقلال ، وثانيهما الدستور . ومن ثم أصبح للصحافة المصرية في ذلك الطور هذان الهدفان اللذان سعت إليهما سعيا حثيثا ، حتى نالتهما في النهاية . وحينذاك مارس المصريون حياة دستورية صحيحة ، وأصبح لهم دستور ينص على حق النواب في مناقشة الوزراء . وتلك هي المرة الثانية التي نجحت فيها صحافتنا الوطنية الماجدة في أن تكون صحافة رأى بالمعنى الصحيح ، المرة الأولى عندما كانت تناضل الاحتلال وتناقشه الحساب . وإذ ذاك ظهرت صحف المؤيد واللواء والجريدة . والمرة الثانية بعد قيام الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ ونجاح هذه الثورة في تحقيق

الأهداف التي سعت إليها .

وفي تلك الأثناء تعرض الشعب المصرى لطائفة من المحن الشداد كادت تفضى إلى قنائه ، وتذهب بكيانه وكثير من مقوماته . ومن هذه المحن الشداد محنة الحرب العالمية الأولى أو الحرب العظمى ، وفيها عصف الاحتلال بكل ما لمصر إذ ذاك من مال ورجال ؛ وكنتم أنفاس الصحافة المصرية ، وأغلق دونها الأبواب .

ثم من تلك المحن الشداد محنة الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وفيها تعرض الشعب والقادة للاضطهاد بكل صوره وأشكاله . وهو اضطهاد كتب للبصريين فيه صفحة المجد ، وكان كالتار الى تصهر الذهب لتكشف عن أصلاته وصفاء عنصره .

ثم منها — أى من تلك المحن — محنة الانقسام الداخلى ؛ وذلك بسبب المفاوضات بين مصر وانجلترا ، وهو انقسام أفادت منه هذه الأخيرة فى أول الأمر . وفى جو هذا الانقسام ظهرت نفوس ضعيفة خبيثة ، تألف منها ومن القصر الملكى والمعتمد البريطانى أحجار ثلاثة وضعت عليها (الوطنية المصرية) فى قدر فأحرقتها حتى أنضجتها ، وخرجت هذه الوطنية المصرية من هذه النار صافية كالذهب .

شهد هذا الطور الرابع من أطوار الصحافة المصرية طائفة من الصحف الشعبية ؛ كانت كل واحدة منها تحمل في طياتها من دلائل التجديد ما ينبئ بوضوح عن مستقبل حسن للصحافة من حيث هي .

وكان يشترك في تحرير تلك الصحف الشعبية كثير من الشخصيات الكبيرة ، بعضهم من المصاحفين^(١) — أعني من غير المحترفين — أو رؤساء التحرير ، وبعضهم من المنقطعين فعلا لتحرير هذه الصحف . وكانت الفئتان — فئة المصاحفين وفئة المحترفين — يجاهدان جهادا عظيما ، في الميدان السياسى تارة ، والميدان الثقافى تارة أخرى .

وعلى الرغم من أن قانون المطبوعات كان لا يزال قائما إلى تلك الفترة ، فإن الصحف المصرية كانت تتمتع بقسط كبير من الحرية أفضى بها إلى الدخول فى أدق المسائل السياسية ، وحلها مسئولية الفشل فى بعض المراحل التى مرت بها القضية المصرية ؛ ومن هنا أخذت هذه الصحافة على عاتقها مهمة الدفاع عن القضية

(١) المصاحف هو الكاتب الذى يوافى الصحيفة بمقالاته ومواده الصحفية بين حين وآخر دون أن يكون من أعضاء أسرة التحرير فيها .

الوطنية أولا ، والدفاع عن الدستور المصرى ثانياً ، والعمل على إكمال النقص الذى بدا فيما حصلت عليه الأمة من استغلال آخر الأمر .

(وبعد) فقد كان من أول صحف الطور الذى نتحدث عنه :

صحيفة الأخبار :

احتجبت صحيفة (الشعب) ومعها كثير من الصحف المصرية مدة خمسة أعوام ، هى أعوام الحرب العظمى ، وعلى أثر ذلك نشبت الثورة المصرية الكبرى ، وارتفع صوت مصر بطلب الاستقلال . ولذا ذاك عادت بعض الصحف للظهور من جديد ، ونشأت صحف لم يكن لها من قبل وجود ، وكان من هذه الأخيرة « صحيفة الأخبار » ومحررها الأول هو الأستاذ أمين الرافعى .

صدر العدد الأول من هذه الصحيفة فى الثانى والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٢٠ ، وصرحت منذ صدورها بأن الغرض الأول لها هو الدفاع عن القضية المصرية . وفى ذلك يقول أمين الرافعى :

« وليست القضية المصرية صعبة الدفاع ، ولا هى فى حاجة إلى الشرح الطويل ؛ فإننا لا نبغى سوى حريتنا . وما كان لأحد

أن يدعى شيئاً في هذه الحرية التي هي ملك لنا وحدنا . ولو كان
للإنصاف وجود في المعاملة السياسية لما تردد مؤتمر الصلح عقب
الحرب في الحكم لنا . ولكن الذين أقاموا أنفسهم للفصل
بين الشعوب خضعوا لمطالبهم ، وطرحوا الحق جانبا ، وانصرفوا
إلى إرضاء بعضهم بعضاً . وهكذا لا يظهر الأقوياء لنا في مظهر
القوة إلا لأننا قد قبلنا الخضوع لهم ، وجثونا أمامهم . ولكننا
إذا نهضنا جميعاً نلنا حريتنا ، ونجونا من أسرهم .

وباختصار — كانت الغاية القصوى من صدور هذه
الصحيفة — كما صرحت بذلك — هي الدفاع عن القضية المصرية
وحدها على أساس الاستقلال التام . وفي ذلك يقول أمين الرافعي
كذلك: « فنحن إذن لا نخدم في الأخبار هيئة خاصة ، ولا نعبر عن
رأى طائفة بالذات . وإنما نخدم أمة ، وتدافع عن مبدأ واحد ،
هو الاستقلال التام للبلاد المصرية . »

وقد كان لهذه الصحيفة التي يحررها أمين الرافعي شأن كبير ،
في المفاوضات الرسمية ، والمفاوضات غير الرسمية بين المصريين
والإنجليز . ووقف أمين الرافعي وراء سعد زغلول منذ أول
الامر ، يشد أزره في هذه المفاوضات ، ويعمل على حماية وحدة
الأمة حتى لا تحدث فيها ثغرة ينفذ منها العدو ؛ لهذا كان

لأمين الرافعي في صحيفة الأخبار مواقف مشهورة من أجل
الدستور ، والدفاع عن الحياة النيابية السليمة في فترة مظلمة كانت
مصر في أثنائها — كما قلنا — كرةً تتلقفها جهات ثلاث :
أولاهما — جهة القصر الملكي .

والثانية — جهة الوزارة .

والثالثة — جهة المندوب السامي البريطاني .

وكل واحدة من هذه الجهات تجر الدستور إلى ناحيتها ،
وتحاول ألا تكون فيه مادة متعارضة تعارضا واضحا مع مصلحتها .

وافتح البرلمان في شهر مارس سنة ١٩٢٣ واقترن ذلك بفوز
(الوفد) بأغلبية ساحقة جعلت من حق سعد زغلول أن يؤلف
الوزارة . وحينئذ وضعت البلاد في مأزق لا تحسد عليه
من وجهين :

الأول — اجتماع الزعامة الشعبية ورياسة الحكومة المصرية
في يد واحدة هي يد سعد زغلول ، وكان من رأى المفكرين
الأحرار أن يكتفى سعد بالزعامة الشعبية، ويقيم من نفسه حارسا
على الحياة النيابية ، ورقبها على تصرفات الحكومة
والثاني — ضيق أصحاب المناصب المرموقة في الحكومة ،

وضيق السياسيين الذين تربوا في مدرسة الوظائف بالحياة
النيابية الجديدة .

وبسبب هذين العاملين السابقين تعرضت الحياة النيابية
الجديدة لمحن شديدة : « فمن تأجيل وتعطيل وحل وتعديل لنظام
الانتخابات على غير الطريق الدستوري السليم ، إلى تعرض
للحقوق والحريات على وجه لا يرضى الحق ولا العدالة ولا الضمير .
ثم لا يقل عن كل ذلك سوء التسليم للسلطات الإنجليزية بما تريد
حتى لقد أصبحت تلك السلطات في النهاية هي الحكم بين المصريين ، .
فكيف كان موقف « الأخبار » من هذا البرلمان الجديد ؟
لقد كان أمين الرافعي ينتظر من هذا البرلمان : أن ينجح في
هذه الأمور :

أولاً — في حل مشكلة المفاوضات بما يحقق أمان البلاد .
ثانياً — في حل مشكلة السودان ، وقد أصرّت مصر يومئذ
على أن السودان جزء منها وأصر الإنجليز على فصل
السودان عنها .

ثالثاً — في الدفاع عن الحريات العامة .
رابعاً — في إعادة النظر في جميع القوانين التي أصدرتها
السلطة العسكرية في غيبة الدستور المصري .

غير أن الوزارة الشعبية برئاسة زغلول لم تكن تستطيع أن تصنع المعجزات ، بل إن زغلولا نفسه كان مفيدا بالنظرة الواقعية للأشياء . ومن هنا اتسعت هوة الخلاف بين الصحافة والحكومة . بل من هنا وقعت بين سعد زغلول وأمين الراقعي خصومة عنيفة ، وذلك منذ خطب سعد خطبة فهم منها أمين أن سعداً أصبح يقبل استئناف المفاوضات دون أن يفكر في (تعديل الأساس) الذي ينبغي أن تقوم عليه هذه المفاوضات ، وهو هنا إلغاء الحماية البريطانية ، ورفع الأحكام العرفية ، وقبول الإنجليز للتحفظات المصرية ؛ وكلها أمور قال بها سعد قبل تولي الحكم ، ثم ظهر من خطبه وأحاديثه أنه أخذ يعدل عنها بعد ذلك . وبحسبنا ذلك في الكلام عن « الأخبار » لننتقل منها إلى الكلام عن :

صحيفة السياسة :

تألف حزب الوفد المصري برئاسة سعد زغلول للبطالة بحق مصر في تقرير مصيرها بعد الحرب العظمى . وتساءل الناس يومئذ — ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل — عما إذا كان الوفد قد رسم لنفسه خطة ما إذا حدث أن الجفأ أخطأه وأخفق في تحقيق مطالب الأمة . وذهب هيكل يعرض هذا السؤال على

أستاذة أحمد لطفى السيد. فأجابه هذا بقوله : إن الوفد ذاهب إلى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر السلام ، فإذا أجيّب إلى طلبه فذاك ، وإلا فسيذهب حسين رشدى وعدلى يكن إلى لندن ؛ لمطالبة الحكومة الإنجليزية بما ترجوه الأمة .

ومنذ ذلك الحين حدث انقسام كبير فى صفوف المصريين : فريق يرى أن سعد زغلول — وهو الوكيل المنتخب فى الجمعية التشريعية ويده توكيل عن الأمة — أحق بأمر المفاوضات فى أمر هذه القضية . وفريق آخر يرى أن من حق الحكومة المصرية أن تتولى بنفسها المفاوضات مع الحكومة البريطانية . وقد كان على رأس الحكومة المصرية إذ ذاك « عدلى يكن » ، وهو الوكيل المعين لا المنتخب فى الجمعية التشريعية ، ثم هو رجل مشهود له بالكفاية والحرص كل الحرص على الكرامة الوطنية . وأخيرا وبعد لآى صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وهو التصريح الذى اعترف باستقلال مصر ، غير أن سعد زغلول — وكان غائبا عن بلاده فى المنفى فى ذلك الوقت — وصف التصريح بأنه « نكبة وطنية » ، ووصف الاستقلال لذى أتى به التصريح بأنه استقلال مزيف .

ومهما يكن من شيء فقد ترتب على هذا التصريح أمور منها :

النظر في أن يكون لمصر دستور تحكم به نفسها بنفسها . وصدر هذا الدستور بالفعل وذلك بعد عرضه على حكومة حسين رشدي . وعلى أثر ذلك ظهرت فكرة تهدف إلى تأليف حزب جديد أطلق عليه اسم « حزب الأحرار الدستوريين » ، يكون برئاسة عدلي يكن ، وينضم إليه جميع الأعضاء الذين اشتركوا في وضع الدستور. وتم الإعلان عن هذا الحزب في شهر أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وصدرت صحيفة السياسة محررها محمد حسين هيكل معبرة عن آراء هذا الحزب يومئذ .

ومضت صحيفة السياسة ، تدعو إلى احترام الحرية ، وإلى العدالة الاجتماعية ، وإلى التمسك بالوحدة القومية ، في الوقت الذي طفقت فيه صحف الوفد تشكك القراء في نيات هذا الحزب، وتمعن في ذلك إلى حد أن وصفته بالخيانة الوطنية . ومن ثم خاض هيكل وأصحابه معركة الصحافة الحزبية ، وذلك ضد الأغلبية الوفدية . وناهيك بها معركة قوية بين نبي الوطنية سعد زغلول ، والذين خرجوا عليه، وكفروا بالامة وهم الأحرار الدستوريون! وكان من نتائج ذلك، انه لم يمض على إصدار صحيفته أكثر من تسعة عشر يوما حتى اغتيل اثنان من رجال الحزب الذي

تنطق باسمه هذه الصحيفة ، وهما حسن باشا عبد الرازق ،
وإسماعيل بك زهدى .

وإذ ذاك انبرى أحد محررى السياسة - وهو الأستاذ توفيق
دياب - يكتب مقالا عنيفاً بعنوان « أتم قتلة الوطن » ؛ حمل فيها
حملة شديدة على الوفديين ، ورماهم بتحريض الشباب البرىء على
ارتكاب جرائم القتل على هذا النحو .

ومن ذلك الوقت بدت « السياسة » ، وكأنها صحيفة الطبقة
المعروفة بحرية التفكير ، وبدت صحف الوفد المصرى ، وكأنها
صحف الغوغاء والعامة ، وهم الأكثرية الساحقة فى جميع الشعوب .
ومن أجل هذا رأينا نخبة من الشباب المثقف يهوى صحيفة
السياسة ، ويريد أن يشارك فى تحريرها كذلك . ومن هؤلاء على
سبيل المثال : طه حسين ، ومحمود عزمى ، وسيد كامل ، وتوفيق
دياب ، وعبد القادر المازنى ، وعبد العزيز البشرى ، وعبد الله
عنان وغيرهم كثيرون .

وكان أكثر هؤلاء من تلاميذ « الجريدة » الذين نشأوا فى رحابها
وتغذوا بلبانها ، وكانت لهم مشاركة فى نشاطها السياسى ونشاطها
الثقافى ، وهكذا ورثت « السياسة » عن الجريدة أسلوبها فى التعبير
وأسلوبها فى التفكير ، كما ورثت « حزب الأحرار الدستوريين » ،

عن « حزب الأمة » القديم اعتداله ونظرتة الواقعية للأمور . وكل هذه أشياء باعدت بينها وبين عقلية الجماهير ، ومن هنا كان على « السياسة » أن تضمد لطخيان هذه الجماهير ، ولكونها كانت تنصرف في النهاية على كل عقبة في الطريق .

أراد سعد زغلول أن يجر هيكل إلى المحاكمة ، بحجة أنه أهان البرلمان في مقال له بعنوان « حزب الستائة » . وهو مقال حمل فيه هيكل على الأعضاء الذين طلبوا رفع المكافأة البرلمانية إلى ستائة جنيه في السنة ، ونوقش هيكل في مقاله وبرأته المحكمة .

وسعى سعد زغلول مرة أخرى في محاكمة هيكل من أجل مقال له بعنوان « هلبوا يا أنصار الحرية فادفعوا العدوان عن الحرية » ، وأجرى له تحقيقاً اتهم فيه بالدعوة إلى قلب نظم الحكم في مصر . ومع أن هيكل لم يتراجع عن كلمة واحدة مما جاء في هذا المقال فإن المحكمة برأته وأفرجت عنه .

وأخيراً حوكت « السياسة » في أخطر قضية لها في حياتها ، وهي القضية المعروفة « بقضية نزاهة الحكم » .

قضية نزاهة الحكم :

بدأت السياسة حملة قوية على أحد الوزراء في وزارة عبد

الفتاح يحيى - كان قد اتخذ من الحكم أداة لتحقيق المنافع الشخصية وبدأ التحقيق مع الدكتور هيكل بوصفه محرراً لهذه المقالات ، وأثار التحقيق مع كبار الساسة في أثناء ذلك انتباه الرأى العام، فوقف يرقب ما ينتهى إليه في هذه المسألة الهامة وطال هذا التحقيق، وانتهى كذلك براءة « السياسة » وبراءة محررها، وكان يوماً مشهوراً من أيام الشعب، يذكر باليوم الذى نظرت فيه قضية التلغرافات للسيد على يوسف صاحب المؤيد - مع الفارق الكبير بينهما: فقضية التلغرافات كانت بين صاحب المؤيد وجبار الاحتلال البريطانى وهو اللورد كرومر . فى حين أن قضية نزاهة الحكم، كانت بين محرر السياسة والحكومة المصرية فى موضوع مس قلوب المصريين وهز مشاعرهم إلى حد كبير وهو موضوع نزاهة الحكم .

السياسة الأسبوعية :

وفى شهر أبريل سنة ١٩٢٦ بدا لأصحاب « السياسة » أن ينشئوا أخيراً هذه الصحيفة، وسموها « السياسة الأسبوعية » وألقوا عليها عبء النشاط الثقافى والاجتماعى ، وقصروا الصحيفة الأولى على النشاط السياسى ،

وشارك الدكتور هيكل كذلك فى « السياسة الأسبوعية » ، فأخذ

يكتب في الاتجاهات الفكرية والأدبية والنقدية ، ونشر فيها
فصولاً من كتبه « ثورة في الأدب » ، و « في أوقات الفراغ » ،
و « حياة محمد » .

ولا يسع مؤرخ الصحافة إلا أن ينظر إلى صحيفة السياسة ،
على أنها تعتبر بحق « رائدة » الطور الرابع من أطوار
الصحافة المصرية .

فإذا ذهبت تسأل عن سبب ذلك ؛ وجدت الإجابة في أمور
كثيرة ، منها على سبيل المثال :

« أولاً ، — إن صحيفة السياسة كانت من أكثر الصحف
المعاصرة لها استخداماً لكبار الكتاب والمفكرين ، وإفساحاً لهم
في مجال الكتابة فيها على اعتبارهم « مصاحفين » ، لا « صحافيين
محترفين » ؛ ولذلك حرصت السياسة على استكتاب الأساتذة :
عبد القادر المازني ، وعبد العزيز البشري ، وطه حسين ، وعلى
عبد الرازق وغيرهم . وقد استطاع هؤلاء الكتاب — ومعهم الدكتور
محمد حسين هيكل أن يخلقوا ثورة في الصحافة المصرية من الناحيتين
الأدبية والفكرية ؛ وذلك بما نشروا في صحيفة السياسة الأسبوعية
— بنوع خاص — من المقالات الثورية في عالم الأدب والاجتماع
والتاريخ والفلسفة . وبحسب القارىء أن نذكره هنا بمقالات

الأستاذ على عبد الرازق التي جمعت فيما بعد في كتاب : « الإسلام وأصول الحكم » ، وهو الكتاب الذي ناقش فكرة الخلافة الإسلامية، وأهاج عليه الرأي المحافظ في مصر والشرق . وحسب القارىء أن يذكر كذلك بأن صحيفة السياسة هي التي حمت الدكتور طه حسين من بطش الحكومة بعد نشره كتاب : « الشعر الجاهلي » . بل حسب القارىء كذلك أن نذكره بمقالات المازني وهي عبارة عن قصص في إطار مقالات كانت نوعاً جديداً في فن المقال من حيث هو . ثم حسب القارىء أخيراً أن نذكره بالمقالات النقدية الاجتماعية التي كتبها الأستاذ عبد العزيز البشري ، وجمعت بعد ذلك في كتاب عنوانه : « في المرأة » ، وفيه صور كاريكاتورية إقليمية لكثير من الشخصيات البارزة في الأمة المصرية كانت هي الأخرى لوناً جديداً من ألوان المقال .

« ثانياً ، — من الأمور التي جعلت من صحيفة السياسة رائدة ومبشرة بالعهد الجديد في الصحافة قدرتها الفنية التي مكنتها من التنويع في فنون المقال ، ومن الإكثار والإجادة لفنون صحفية أخرى ؛ مثل فن التحقيق الصحفي ، وفن الحديث

السحفي ، وفن الما جريات^(١) وخاصة الما جريات البرلمانية التي كان يتولى تحريرها الدكتور محمود عزمى . وتلك كلها عناصر للتجديد لم تتوفر لصحف أخرى .

« ثالثاً ، — يضاف إلى ما تقدم عناية « السياسة » كذلك بالمظهر الخارجى لأسرة التحرير . والحق أن هذه الصحيفة تعتبر من أولى الصحف المصرية عناية بمندوبيها ومحرريها ؛ تعنى بهم من ناحية المظهر ، وتمنحهم المال الذى يتجملون به فى الحفلات الرسمية وغير الرسمية حتى يتمكنوا من غشيان هذه المجالس ومن الحصول على ما يهم الصحيفة ؛ من أخبار المجتمع المصرى على اختلاف طبقاته .

ولم تقف عناية الصحيفة بمحريها إلى هذا الحد حتى وجدناها تقسمهم إلى أقسام : فتجعل بعضهم لأمور السياسة ، وبعضهم لأمور الاقتصاد ، وبعضهم للأدب والفكر والفن وهكذا . وأخيراً وجدنا لهذه الصحيفة عناية كبيرة بعنصر « الصورة » فى الصحافة ، وتقديراً كبيراً لقيمتها الإخبارية .

(١) الما جريات : جمع ما جرى وهى مؤلفة من كلمتين هما : ما وجرى ويقصد بها فى الصحافة إلى المناقشات البرلمانية أو القسائية أو الدولية أو الدبلوماسية .

من اجل هذا وذاك نستطيع نحن أن ننظر إلى الأستاذين حافظ عفيفي ، ومحمد حسين هيكل - وهما المهيمنان على هذه الصحيفة - على أنهما الأستاذان الحقيقيان للدرسة الحديثة في الصحافة .
والآن ندع صحافة الأحرار الدستوريين لنأخذ في الحديث عن صحافة الوفد ، ومن أهم صحف هذا الحزب « البلاغ » ثم « كوكب الشرق » . وسنكتفى بالكلام عن الأولى على سبيل المثال :

صحيفة البلاغ :

لم يكن للوفد المصري صحف رسمية خاصة به ، بل كان يدافع عنه وعن القضية الوطنية رجل واحد في أول الأمر - هو أمين الرافعي - في صحيفة الأخبار ، ثم تولى الدفاع عنه رجل آخر هو عبد القادر حمزة في « الأهالي » .

وبقي الحال على ذلك حتى فكر الوفديون في أن تكون لهم صحيفة خاصة بهم كما أن للأحرار الدستوريين صحيفتهم الخاصة بهم كذلك . ومن ثم صدرت « البلاغ » لمحررها الأستاذ عبد القادر حمزة سنة ١٩٢٣ ، وكان من أسرة التحرير في هذه الصحيفة رجال لهم شهرتهم في الميدانين : السياسي والثقافي . ومن هؤلاء : الأستاذ عباس محمود العقاد ، والأستاذ أحمد حافظ

عوض صاحب جريدة «كوكب الشرق» فيما بعد .
والحق أن كلا من هذين الرجلين قام بالدور الذي قام به
الكتاب الرواد في صحيفتي : « السياسة اليومية » ، و« السياسة
الأسبوعية » . وكما كان كتاب صحيفة السياسة طلائع النهضة الفكرية
الحديثة في مصر والشرق ، فكذلك كان الأستاذ عباس محمود العقاد
بوجه خاص من أولئك الرواد الذين لهم فضل كبير على الأدب
والفكر في مصر والشرق . ونعود إلى صحيفة البلاغ فنقول : إن من
السهل علينا أن نتصور الخصومة التي نشأت بينها وبين صحيفة
« السياسة » ، في ذلك الوقت . وقد كانت خصومة عنيفة كل
العنف بين صحيفتين كبيرتين بل معسكرين عظيمين ، هما المعسكر
الذي تمثله السياسية صحيفة الأقلية ، والمعسكر الذي تمثله « البلاغ » ،
صحيفة الأغلبية . ومن أجل هذا كان طبيعياً أن يصبح أسلوب
الآخر ، وهي : « البلاغ » ، من الخشونة والتجريح والاعتداء
بالدرجة التي تلائم قوتها ؛ وتتفق وسطوتها في المجال الشعبي .
أما أسلوب الصحيفة الأولى - وهي السياسة - فكان أدنى
إلى العفة والنزاهة ؛ لأنها تمبر عن الأقلية ؛ ولأن أصحابها كانوا
حريصين على أن يظهروا أمام الجمهور بمظهر السمو في النقص
والزهد في المهارة .

وصاحب « البلاغ » ، - وهو الأستاذ عبد القادر حمزة - شاب من الأذكياء ، تخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٠٣ ، وكان كالأستاذ أمين الرافعي - يكتب لبعض الصحف وهو طالب في الكلية . ومن تلك الصحف التي كان يكتب لها صحيفة « الجريدة » ، وعن طريق هذه الأخيرة تعرف بالأستاذ أحمد لطفي السيد ، وقد رشحه هذا الأستاذ ليكون رئيساً لتحرير صحيفة « الأهالي » التي صدرت بمدينة الإسكندرية سنة ١٩١٠ . ثم انتقلت صحيفة « الأهالي » من الإسكندرية إلى القاهرة ، وذلك في سنة ١٩٢١ ، والحركة الوطنية في أوجها . ومنذ يومئذ مالت « الأهالي » من تلقاء نفسها إلى الدفاع عن سعد زغلول ، وتعرضت في سبيل ذلك للتعطيل تلو التعطيل ، مما اضطر الأستاذ عبد القادر حمزة في النهاية إلى تركها والكتابة في صحيفة « المحروسة » . وبقي يكتب فيها إلى أن تذهبت لها الحكومة وعطلتها هي الأخرى ، فلم يجد عبد القادر حمزة أمامه إلا طريقاً واحداً يسد به نهمة الشديد للصحافة . وهذا الطريق هو إصدار المنشورات الحرة بين حين وآخر - لا شيء إلا لأن هذه المنشورات لا تخضع للرقابة . ومع هذا وذاك فلم يتمكن الحكومة من المضى في هذه الطريقة . وأخيراً استقر رأى الأستاذ حمزة على استئجار صحيفة :

د الأفكار ، ، للاستعانة بها في تقوية الحركة الوطنية ، والوقوف وراء سعد زغلول في هذه الحركة القوية . واستمر يكسب فيها إلى اليوم السادس عشر من شهر يناير سنة ١٩٢٣ ، فقد حصل بعدئذ على تصريح بإصدار صحيفة د البلاغ ، ، التي صدر العدد الأول من أعدادها في الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٣

وفي هذه الصحيفة الأخيرة أخذ المحرر في محاربة الإنجليز ، وكان سعد زغلول من أشد الناس إعجاباً بطريقة الأستاذ حمزة في التحرير ، وكان لهذا المحرر الكبير عمود يومية في صحيفة د البلاغ ، على شكل العصا ، حقق له جميع الخصائص الفنية التي لهذا النوع من أنواع التحرير الصحفي - وهو العمود : ومن هذه الخصائص أن يشغل ميزاً معيناً ويتخذ عنواناً معيناً ، ويحمل توقيعاً معيناً .

غير أن الإنجليز لم يطبقوا صبراً على بقاء هذه الصحيفة الوطنية الصريحة ، فعملوا على تعطيلها ، وقبضوا على محرريها ، واعتقلوه في السادس من شهر مارس سنة ١٩٢٣ ، ثم أفرجوا عنه وعن صحيفته فعادت إلى الظهور في الثامن عشر من شهر يونيو من نفس السنة .

وكما كانت هناك صحيفة باسم : «السياسة الأسبوعية» ، فكذلك حرص الأستاذ عبد القادر حمزة على أن يكون هناك ما يسمى «بالبلاغ الأسبوعي» ، وفيه عني الرجل بما عني به الدكتور حسين هيكل من تسجيل دقيق للحركة الأدبية ، وعرض لمشكلات النشاط الفكرى والفنى . ومن هنا يجب أن ننظر إلى «البلاغ الأسبوعي» ، نظرنا إلى «السياسة الأسبوعية» من حيث أنها قادت الحركة الفكرية ، وكان لها الفضل كل الفضل فيما نعمت به مصر من نهضة فكرية ، ونهضة سياسية ودستورية واقتصادية واجتماعية شملت فيما شملته كذلك الحركة النسائية وغيرها من الحركات التى بنت المجتمع المصرى الحديث ، وبنت العقول المصرى الحديث . كل ذلك كان نتيجة فى الواقع لما نعمت به مصر بعد حصولها على دستور سنة ١٩٢٣ ، من استقرار نسبي مكنها من أن تخطو خطوات موفقة فى المجالين الفكرى والأدبى ، وجعل لها هذه المكانة التى تزهو بها فى العالم العربى إلى اليوم .

* * *

وما دام الحديث قد تطرق بنا إلى الاتجاهات الثقافية والأدبية فى الصحافة المصرية . فهنا يصح أن نشير إشارة سريعة إلى بعض المجالات التى ظهرت فى هذا الميدان .

والذى نعلمه مما سبق أن « روضة المدارس » التى صدرت
رسمية فى السابع عشر من شهر أبريل سنة ١٨٧٠ هى الأُم
الأولى للمجلات الأدبية فى البلاد المصرية .

والذى نعلمه كذلك أن الأُم الثانية لجميع الصحف الأدبية
فى مصر هى « الجريدة » التى قام بتحريرها أحمد لطفى السيد
وتلاميذه . ومنهم : حسين هيكل ، وعبد القادر حمزة ، وأحمد
حافظ عوض ، وطه حسين ، وعبد القادر المازنى ، وعباس
العقاد وغيرهم .

ولقد كانت البنت البكر لهذه الأُم الثانية هى صحيفة
« السياسة الأسبوعية » . وقد رأينا كيف عنيت بالتجديد
فى الأدب والفكر والنقد جميعاً . وكان لهذا التجديد آثاره
الطيبة فى كل بلاد العالم العربى .

ولما كان للـ « وريين » أكبر الأثر فى الصحافة اليومية فى مصر ،
فكذلك كان لهم فضل كبير على الصحافة الأدبية فيها . وبجاءنا
أن نشير هنا إلى مجلة « المقتطف » التى صدرت ببيروت سنة
١٨٧٦ ثم انتقلت إلى القاهرة سنة ١٨٨٥ ، ونعتبر من أقدم
المجلات العلمية فى الشرق . وأصحابها الدكاترة : يعقوب صروف
وشاهين مكاريوس ، وفارس نمر .

ثم بحسبنا كذلك أن نشير إلى مجلة « الهلال » التي صدرت في مصر سنة ١٨٩٢ وصاحبها المؤرخ الكبير والعالم المشهور جورجى زيدان . ثم مجلة « البيان » الصادرة في القاهرة سنة ١٨٩٧ لصاحبها إبراهيم اليازجى .

إن الذى لا شك فيه أن لهذه المجلات السورية الكبيرة ديننا فى عتق الثقافة المصرية الحديثة ، وهى الثقافة التى نعرف بالفضل لهذا العنصر السورى بالذات ، وما زالت تعترف به إلى اليوم .

غير أن هذه المجلات الأدبية سورية « مصرية سرعان ما اختفت من الميدان الأدبى جملة ، وخلا الجو إلا من المجلة العتيقة التى تشبه صحيفة « الأهرام » فى حياتها الطويلة - ونعنى بها « الهلال » ، وهى الصحيفة التى تودى عمها الثقافة والأدبى والفكرة بنجاح كبير إلى اليوم .



خاتمة

رأيت أيها القارىء كيف أن صحافتنا المصرية بدأت رسمية ، ثم لم تلبث أن أصبحت شعبية . وذلك منذ ولي البلاد أمير أحاطت به ظروف سيئة هو اسماعيل . كما رأيت أيها القارىء أن الصحافة المصرية مرت في مائة عام بأطوار أربعة كانت في طورها الأول (١٨٢٨ — ١٨٧٦) تعنى عناية كبيرة بأمر الثقافة .

وحين دخلت الصحافة المصرية طورها الثانى (١٨٧٧ — ١٨٨٢) اتخذت لنفسها صبغة سياسية وربما كان من أسباب ذلك وجود السيد جمال الدين الأفغانى فى مصر قبل هذه الفترة بقليل ؛ يمهّد الأذهان للثورة ، ويغرس فى التربة المصرية بذور الحرية . وفى الوقت الذى وجد فيه السيد جمال الدين كانت الحرب الروسية التركية قد بدأت ، وفتحت الباب للصحافة الشعبية — كما قلنا — لكى تخوض فى السياسة وذلك برضى من الوالى ومن الحكومة .

ثم فى الطور الثالث من أطوار الصحافة المصرية (١٨٨٣ — ١٩١٩) استمر لهذه الصحافة ما كان لها من الصبغة السياسية ،

وزادت عليها صبغة أخرى تحريرية ، وظهرت هذه الأخيرة بوضوح في ميدان التفكير السياسى ، وميدان التفكير الخلقى والاجتماعى ، وميدان التفكير الأدبى آخر الأمر ، وتجلت هذه الصبغة التحريرية بوضوح في صحف المؤيد واللواء والجريدة .

ثم في الطور الرابع والآخر من الأطوار التى تحدثنا عنها (١٩١٩-١٩٢٨) وهو الدور الذى جاء نتيجة للثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ ، واستغل المصريون فى أثنائها بأمرين هما : القضية المصرية ، والحياة النيابية - كانت الصحافة المصرية مصبوغة بهاتين الصبغتين ، كما يظهر لنا ذلك فى صحافة أمين الرافعى ، ثم فى صحافة الوفد المصرى ، وصحافة الأحرار الدستوريين .

مرت بمصر كل هذه الظروف ، وهى وإن كانت ظروفًا سيئة ، ومحنًا قاسية ، إلا أنها عادت على الصحافة المصرية ذاتها بالقوة والمنعة ، وبالقدرة الكاملة على المقاومة . وبها اشتدت عضلات الصحافة المصرية فى الطورين الثالث والرابع من الأطوار التى أشرت إليها ؛ حتى أصبحت صحافة شعبية ممتازة بالمعنى الصحيح ، وكانت عنايتها إذ ذاك محصورة (فى المقال الصحفي) ، أو بعبارة أخرى ، كان (فن المقال) هو الأداة الوحيدة

في يد الصحافة ، أو السلاح الوحيد لها في ميدان السكفاح من أجل الوطن وقضايا الوطن ! .

وباختصار بلغت هذه الصحافة المصرية حد النضوج والكمال في الطورين الثالث والرابع من أطوار حياتها التي شرحناها في هذا الكتاب .

أجل بلغت حد النضوج والكمال إذ ذاك ؛ لأنها استطاعت في الواقع أن تقوم بكل ما يجب عليها من واجبات نحو الأمان الوطنية ، والكرامة الوطنية ، حتى لقد لفتت إليها أنظار المؤرخين من العرب والأوروبيين على السواء ، وكان من نتيجة ذلك أن ذهب بعض أولئك المؤرخين يطلقون على الحركة التي قامت بها الصحافة في هاتين المرحلتين السابقتين اسم « الطور الصحافي من أطوار الحركة الوطنية » . ولذا سنفرد هذه التسمية بهذه الكلمة التي نختم بها الكتاب :

الطور الصحافي من أطوار الحركة الوطنية :

نفهم مما سبق أن هذا الطور الصحافي من أطوار الحركة الوطنية إنما يشمل مرحلتين من « راحل الصحافة المصرية » هما المرحلة الثالثة ، والمرحلة الرابعة .

فمنذ الاحتلال البريطاني — على أقل تقدير — والصحافة المصرية تدرك أن عليها واجبات وطنية لا بد لها من القيام بها مهما كلفها ذلك من جهد أو بذل في سبيله من تضحية .
كان على الصحافة المصرية (أولا) أن تدافع عن المصريين في الميدان السياسى ، وأن تتصدى لمقاومة المحتلين بكل ما تملك من وسائل ، وذلك حتى يختصر المحتلون مدة بقائهم فى مصر ، ويرحلوا عنها فى أقرب وقت .

ثم كان على الصحافة المصرية (ثانياً) أن تدافع عن المصريين فى المجال الدينى . فقد جاء الاحتلال يذر بذور التفارقة الدينية بين عنصرى الأمة ؛ وهما المسلمون والأقباط ، ثم لم يكفه ذلك حتى أخذ يرمى الدين الإسلامى — وهو دين الأغلبية الساحقة من أبناء هذه الأمة — بأنه دين لا يتفق مع الحضارة الحديثة . وأنه دين كان يصلح للمسلمين منذ أكثر من ألف سنة . أما الآن فلم يعد يصلح لهم أو يتفق مع زمانهم . ثم لم يكتفِ الاحتلال بذلك حتى مضى يتهم المسلمين أنفسهم بالتعصب الدينى الذى أضر بمصلحة الأجانب المقيمين بمصر .

وفى هذا الميدان من ميادين الكفاح ضد الاستعمار وقفت الصحافة وقفة عنيدة ، وأخذت تدافع عن الدين الإسلامى

بحرارة شديدة ، كما نفت عن المسلمين تهمة التعصب الديني ، وأمنت الأجانب المقيمين بمصر على حياتهم وأموالهم ، وبلغت الصحافة من كل ذلك ما تريد .

ثم كان على الصحافة المصرية من (ناحية ثالثة) — أن تهاجم سياسة التعليم التي وضعها الاحتلال في مصر — وهي السياسة التي بناها على : تشجيع الكتاتيب ، والاكتفاء بها عن التعليم العالي ؛ بحجة أن البلاد لم ترق بعد إلى هذا المستوى . وإذ ذاك وقفت الصحافة المصرية تندد بهذه السياسة وتدعو إلى إنشاء الجامعة المصرية التي تم إنشاؤها بالفعل سنة ١٩٠٨ .

ثم كان على الصحافة المصرية من (ناحية رابعة) أن تقوم بإصلاح ما أفسده الاحتلال من أخلاق المصريين وطباعهم . فقد حرص هذا الاحتلال — كما قلنا — على غرس طائفة من الأخلاق التي تساعد على بقاءه أطول مدة ممكنة . ومنها أخلاق الخضوع ، والاستكانة ، والرضى بالأمر الواقع ، وعبادة اليسالة ، وتقديس الأصنام ، ورفع الحكم إلى مرتبة الآلهة . وكان من خير من أبلى بلاء حسنا في ميدان الإصلاح الخلق الأستاذ أحمد لطفي السيد في (الجريدة) .

ثم كان على الصحافة المصرية من (ناحية خامسة) أن تواصل الدفاع عن اللغة العربية، على اعتبار أنها عنوان الشخصية المصرية التي يجب أن تنفصل عن الشخصية العثمانية وعن الشخصية الأوروبية ، وأن تمتد هذه اللغة بجميع المقومات التي لا بد منها كي تعيش ، وتنمو ، وتتقدم . وتضطلع بجميع الواجبات عايتها نحو السياسة ، والثقافة ، والحضارة بمخترعاتها الحديثة ومبتكراتها الفكرية التي لا نهاية لها .

ثم إنه منذ فشل المصريون في سياسة الاعتماد على تركيا ، وفشلوا في سياسية الاعتماد على فرنسا ، وفشلوا في سياسة الاعتماد على حكاهم من أبناء محمد على لم يبق أمامهم في الواقع غير الاعتماد على سياسة جديدة ؛ هي سياسة إعداد الأمة المصرية من جديد ، وتزويدها بأدوات الاستقلال والنهوض . ولكن ماذا أريد بأدوات الاستقلال حينذاك ؟

إنها العلم ، والخلق ، والإيمان بالنفس ، والشعور بالكرامة ، والإحساس بالشخصية المصرية ، والعمل على حمايتها من الآفات التي منيت بها عبر القرون التي كانت مصر في أثنائها خاضعة للسلطان الأجنبي 11

وأخيراً كان على الصحافة المصرية من (ناحية سادسة)

أن تحمى ظهر الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ ، وأن تحافظ ما أمكنها على ما جنته من ثمار هذه الثورة ، ومن أعظمها يومئذ ثمرة الإبقاء على وحدة الأمة ، والوقوف وراء المفاوضات المصرية الذى يسعى فى الحصول على الاستقلال والحرية ، والوقوف كذلك وراء اللجنة التى تضع الدستور المصرى الجديد حتى يصبح دستوراً محققاً لمطالب الأمة ، ثم الوقوف أخيراً وراء البرلمان المصرى نفسه حتى يودى واجبه كاملاً نحو الاستقلال والحريات ونحو العمل على إنقاذ البلاد من كبوتها السياسية وكبوتها الاقتصادية .

١٢ ٢١ ٢٢

قامت الصحافة المصرية بكل هذه الفروض والواجبات ، وذلك فى أثناء الفترة التى بدأت بالاحتلال البريطانى وانهت بظهور الحياة النيابية السليمة ، وصمود رجل كأمين الرافعى فى الدفاع عنها بكل قوته وذلك حتى مات فى سنة ١٩٢٧ ، وسبقه إلى الملاء الأعلى قطب الرحى من الحياة المصرية كلها فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحلها - ونعنى به سعد زغلول .

وتلك هى الأسباب التى من أجلها أطلق المؤرخون كما قلنا - اسم (الظور الصحافى من أطوار الحركة الوطنية)

على تلك الفترة . ومن هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال
(ينج) في كتابه عن مصر ، وتشارلز آدمز في كتابه « الاسلام
والتجديد » . وهما على حق في هذه التسمية .

أما نحن فقد نظرنا إلى تلك الفترة من تاريخ صحافتنا على
أنها « العصر الذهبي » لهذه الصحافة بكل ما تحمل هذه الكلمة
من معنى .

وفي ذلك ما يخالف الفكرة العالقة ببعض الأذهان من أن
الصحافة المصرية في عهد الاستعمار وبداية الاستقلال كانت صحافة
هزيلة ، أو موصوفة بالضعف أو الركود أو الإهمال ونحو ذلك
من الصفات .

وحسبك أيها القارئ أن توازن بين ما صنعتته الشورى لمصر
في ذلك الوقت ، وما صنعتته الصحافة لها في نفس الوقت فستجد
أن هذه الأخيرة وهي الصحافة أفادت الوطن أضعاف
ما أفادته الشورى .

إن الشرط الوحيد لنجاح الصحافة في مهمتها وقيامها بما يجب
عليها في قيادة أمتها إنما هو « الحرية » .
فبالحرية تستطيع الصحافة أن تعيش ، وبالحرية تستطيع
الصحافة أن تبلغ في ميدان الإصلاح كل ما تريد .

١ المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها . . .

وأطلبه من :

- ١ - دار القلم ١٨ شارع سوو التوفيقية
- ٢ - مكاتب شركة توزيع الأخبار... في الأقليم المصرى
- ٣ - وكلاء الشركة القومية في جميع البلاد العربية
- ٤ - مكتبة المتنى بغداد - العراق

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تمنح لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة
- تحتوي جميع ألوان المعرفة بإقلام أساتذة
- مختصين وقرّسين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر • في أوله وفي منتصفه

الكتاب السادس

الكتاب السابع

الكتاب الثامن

To: www.al-mostafa.com